أ. د. عبد الجليل مرتاض



التحليل البنيوي للمعنى والسياق



مكتبة
النّقد
الأدبيّ

med filali

صنف : 4/322
- الإيداع القانوني : 2010/3283
- ردمك : 978-9961-65-449-1

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

أ. د. عبد الجليل مرتاض

التحليل البنيوي للمعنى والسياق



الفصل الأول
التحليل البنيوي للسياق

تعريف السياق

يعرّف أحد اللسانيين السياق Le Contexte بأنه أمارات شكلية مُمَوْضَعَة situées في المحيط اللساني الفعلي لوحدة دالة أو للوحدات التي تشكّل المحيط المباشر للوحدة الصوتية، كالوحدتين الصوتيتين (/i/ و /v/ تشكلان السياق لـ I/في(Ils vont : يذهبون)/، وسواء أكان هذا المحيط قريبا أم بعيدا.[1]

غير أن المصدر السابق ينبّهنا إلى أن نميز ما يعود إلى السياق ذي البعد اللساني عن المقام la situation الذي تُعدّ تجربته غير معيشة لسانيا، ولذا يمكن أن يكون المقام معتبرا في هذه الأثناء كترجمة، بوساطة وسائل لسانية صرف، عما هو وثيق الصلة بالموضوع pertinent المحيط أو الجواري بالمقام لتكوين المرسلة le message فأنت في حالة المقام تشير إلى قلم رصاص على الطاولة وتقول أعطني إياه، وخلافا لذلك تكتب : أعطني القلم الذي فوق الطاولة لتصوّب أو تصحّح المقام الغائب من خلال السياق اللساني الذي يومئ أو يرشد إلى المعنى المعطى للكلمات مُحيّناً بنقل من القوة إلى الفعل بعضَ المعانم les sèmes[2]، ومقصيا الأخرى، الأمر الذي يساعده على اجتناب الالتباس حتى في حالة مجانسات لفظية، ففي "و يوم تقوم الساعة، يقسم المجرمون ما لَبِثُوا غير ساعة"، تقوم،

1. ينظر : Dictionnaire de la linguistique, P. 83 G. Mounin

2. Sème يشار بها من بعض اللسانيين الفرنسيين BERNARD POTTIER إلى الوحدة الدلالية الصغرى التي تنجم عن تحليل مداليل، مثال ذلك : يحلّل الكرسي إلى أربعة معانم (جمع مَعْنَم) : 1) للجلوس عليه. 2) على قدم 3) sur pied. لشخص واحد. 4) بمسند أو مقعد avec dossier.

ما لبثوا غير، تنهضان بدور السياق، وتفرضان تأويلا تارة مجازيا، وطور أدبيا لكلمة ساعة، لأنه في كل حالة نجد طابعا مختلفا لساعة مُحَيَّناً actualisé من خلال السياق.

وإذا أردنا أن ندرك أقصى ما يمكن أن يُدْرك من النظريات اللسانية ومنظريها، فخليق بنا أن نراعي أربعة إدراكات للسياق :

على مستوى الكلام هو المحيط اللساني لوحدة لغوية، ويقصد بهذا المحيط هنا مجموع العناصر الحاضرة بالفعل في النص بجوار مباشر أو بعيد عن الوحدة المعتبرة، ومن ثم فإن "العناصر التي تشترط الحضور، والشكل، والوظيفة أو المعنى لهذه الوحدة تنتسب إلى السياق الملازم، مثلا: هل عندك مِطْهَاة ؟ – نعم، اشتريت واحدة. فالفعل اشترى ملازم Pertinent لأنه ينتقِي المعنى للمطهاة [1].

على مستوى اللسان كل وحدة لسانية تُسْتَخْدَم في الوقت نفسه في السياق لوحدات ذات رتبة سفلى، فالفونيم [M] يمكن أن يكون له سياق المورفيم(قنش صديق)، والذي يمكنه هو الآخر أن يكون في سياق الجملة tu es mon ami : أنت صديقي.

السياق اللساني وغير اللساني، أي يميّز بين سياق لساني وسياق مقامي.

السياق لدى جاكبسون يعادل المرجعم زع پسپهفزم، وهو المصطلح الذي شكى جاكبسون من غموضه "تتطلب المرسلة قبل أي شيء سياقا un contexte يحيل عليها (والذي نسميه كذلك بمصطلح غامض إلى حدّ ما" المرجع le réfèrent [2]، وهو ما يعني أن الوظيفة المرجعية تحيل على السياق الذي يمكن أن يكون ما فوق لساني أو لسانيا.

السيـاق في منظـور لسانييـن

كان أنطوان ماييه يقول إن معنى كلمة لا ينقاد للتعريف إلا من خلال ما يدخله في الاستعمالات اللسانية، وهذه الرؤية الأخيرة وحدها ما يجب أن تؤخذ

1. Dictionnaire de didactique des langues, P. 123.
2. ESSAIS de linguistique général, P : 213 Roman Jakobson.

بعين الاعتبار، وحاول جورج مونان في خضم تحليله لـ 214 إمكان وقوع هذه الكلمات في نصوص وجمل مختلفة، وهو ما أسماه تواترات كلمات النظام، أن يصل إلى تحليل أفاد منه أن السياق اللساني لا يسمح بالوصول إلا إلى تعريف واحد "Multivoque" وغير مكتمل لكلمة نظام، ولكن دراسة بريكل BREKLE كانت أكثر وضوحا، وهو يشير إلى أن المعنى لكلمة ينجم عن كلية استعمالاته :
"في مقام تاريخي واجتماعي محدّد، يمكن لفرد أن يعرّف هذا المقام la situation من خلال علامات وتركيبات لعلامات، وهذا الفرد يجب أن يكون لديه الإدراكات الذهنية نفسها لاستعمال اللغة التي يتواصل بها نفس أفراد المجموعة اللغوية، وبدون هذه المطابقة للإدراك الحسي والإدراك الذهني، فإن التبليغ يكون مستحيلا، لأن محتوى العلامة لنظام اللغة، أي الحدّ الأدنى للمعرفة المشتركة لشروط العلامة لدى المجموعة اللغوية، ينتج من مجمل تحاليل التحققات الفردية (تحققات علامات في مقامها الفردي للاستعمال)."[1]

والدراسات التي قام بها لسانيون أمثال جورج مونان، وبريكل BREKLE، ودُبْوا Dubais (الكلمات السياسية والاجتماعية في فرنسا من 1869 إلى 1872) أظهرت أن السياق اللساني بوصفه مجموعة من الأمارات الشكلية المحيطة بوحدة، لا يفشي لنا بالدلالة كلها لهذه الوحدة اللسانية، لكن فقط بقيمتها أو موقعها الخاص بالنسبة للوحدات الأخرى داخل النظام اللساني "وهذا يدل على أن التحليل السياقي يسمح بكل تأكيد بتطويق المعنى لكلمة أحيانا وجزئيا، لكن هذا يبقى أقل من تقنية لها محدودياتها ؛ لا تزوّدنا إلا بمؤشرات حول العلاقات بين القيم الديسوسورية للكلمات دون التوفيق في كل مرة لتدقيق ماهية الدلالة، فحالة الصيغ النادرة HAPAX، أي الكلمات التي لا تظهر إلا مرة واحدة كما هو حالات مضمحلة في لغة، إظهار كاشف بهذا الخصوص."[2]

المقام في منظور لسانيين

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنّ فقه اللغة الذي أرسى قاعدته المنهجية في الدراسات اللغوية الفرنسية أنطوان ماييه كان مزدوجا :

---

1. La sémantique fonctionnelle, P : 179-180. Claude Germain.

2. المرجع السابق، ص. 180.

دراسة لكل السياقات، ودراسة لأوصاف الحقيقة غير اللسانية، لكن برييطو PRIETO كان ممن أوضح ما هو خارج عن اللسانيات ومقامها، وصارت الوحدة اللغوية الصغرى تحدّد سلبيا بدرجة أقل من خلال تباينها مع المداليل الأخرى للغة، ومن ثم فإن المعنى بحسب ما يراه برييطو يتعيّن كعلاقة اجتماعية ملموسة لمرسل يريد أن ينشئه بفضل التصويت والمقام "في فعل كلام عادي يسلّم التصويت بعدة معان ويقصي المعاني الأخرى، لنفرض مثلا أن لـ س قلمين: واحدا أسود يكتب به الآن، وآخر أحمر في درج مكتبه، فإذا أرسل ص تصويتا (Donnez-moi le crayon : أعطني قلم الرصاص)، فالتصويت يسلّم بالمعنيين "إلتماس قلم الرصاص الأحمر" و"طلب قلم الرصاص الأسود" في الوقت نفسه، ولكنه يقصي "طلب الدفتر" و"طلب المسطرة" ... إلخ، وعليه فإن دور التصويت يقبل معاني ويبعد أخرى، ونحن نعرف سلفا ما يُقْصَى من معانٍ كلما عرفنا وحدة دالة صغرى، فقول الشاعر :

أفي الولائم أولاداً لواحدة   وفي العبادة أولاداً لِعَلاَّت

ورد فيه "بنوعلاّت" (إذا كان أبوهم واحدا وأمهاتهم شتى) ومعنى هذه الوحدة الدالة يقصي معنى واحدا على الأقل، وهم "الأخياف" (إخوة من الأم)، ومعنى "الشجرة" يستبعد معاني لا حصر لها : البحر، السماء، النار، الدابة، ... ولكنه لا يستثني مع ذلك معاني أخرى مثل (شجرة النسب) وما اشتق منها من معان عديدة لم يعد لها صلة بمعنى الشجرة حصريا.

وبالنسبة للمقام la situation فإن أحد الدارسين عرّفه منذ سنة 1973 بأنه "مجموعة الوقائع المعروفة من قبل المتكلم والمستمع وقت تحقيق فعل الكلام"[1]، ومن خلال السياق لوحدة نفهم أنه المجموع لأمارات شكلية لسانية مموضعة في محيط قريب أو بعيد عن الوحدة المقصودة، أو هو مجموع الشروط لإنتاج الملفوظ إنتاجا خارجا عن الملفوظ نفسه "كل ملفوظ ينجم بالفعل من نية يمكن أن يجد عبرها مبرّره ليكون في متناول الشخصية التي تتكلم، والآخر أو الأخرى التي تسمع في محيط (مكان)

---

1. La sémantique fonctionnelle, P : 187 188.

وفي وقت (زمن) حيث يتم الإرسال، كل هذه العوامل التي تؤثر في تحقيق الملفوظ تشكّل المقام."[1]

وتبقى مسألة المقام معقدة للغاية باتفاق اللسانيين، فبالنسبة لبلومفيلد الذي يدرج إظهار وضعٍ سبب ما يحس به المرء خارج الذات في التعبير عن تصرف في دلالة الفعل اللساني، أن المقام ينهض بدور أساس في إنتاج المعنى "دلالة حدث لساني المقام الذي به يرسل المتكلم والإجابة التي يحصل عليه المستمع"[2] على حين يعرّف مصدر لساني آخر المقام كـ"مجموعة من عناصر خارج لساني حاضرة في الذهن لمتكلمين أو أيضا في الحقيقة الفيزيائية الخارجية أثناء وقت التبليغ حيث يمكننا تخصيص دور في تكييف الشكل le conditionnement de la forme أو الوظيفة لعناصر لسانية[3]"، وهذا النص يؤكد على أمرين من مظاهر أساس وذات طبيعة متباينة جدا للمقام :

المحيط الفيزيائي المشار إليه في الفضاء الزمني لفعل الكلام acte de parole الذي يُحيِّن actualise إحالات عديدة، إما ملموسة وهو كل شيء من الأشياء التي لها علاقة بالخطاب، وإما زمنية متصلة بوقت التبليغ، إذ يمكن للمتكلم أن يقول : أنظر، دون ذكر الشيء للنظر، أو كأن يقول : هو ذا رقم أربعة عشر دون الإشارة إلى حالة بعينها أو عنوان منزل أو رقم يحمل ذكرى وطنية ... أو كأن يقول: سيعود غدا منتصف النهار، فالمعنيُّ بالعودة ... تحلّ شفرته تبعا لوقت التبليغ، وكل هذه العناصر للمقام، التي تسمح للمستمع من فهم ملفوظات غير مشفورة أو غامضة خارج المقام، يقال لها عناصر مقامية Situationnels، "أي ملازمة أو ذات صلة وثيقة بالموضوع pertinent، وهذا المفهوم للمحيط يمكن أن يكون متسعا في الذهنية السوسيو ثقافية، كالعلاقة الموجودة بين الملفوظين :

– ألا تصلي العشاء ؟ (يقول لك أحد ما)

– لم أسمع الآذان

1. La sémantique fonctionnelle, P : 504.

2. نفسه، ص. 504.
3. نفسه، ص. 504 .

أو : – ألا تذهب إلى المدرسة ؟

إنها الجمعة يا أمّي

أو : – لم لا تذهب إلى زيارة القدس ؟

إنها محتلة (تجيب أيّاً كان)

فهذه الملفوظات لا يمكن أن تكون مفهومة إلا بإحالات دينية وتقويم مدرسي، ووقائع تاريخية وسياسية، حيث لا تصلّى صلاة قبل وقتها، ولا توجد دراسة في يوم الجمعة بالنسبة لمن يتخذ هذا اليوم عطلة، ولا يسمح بزيارة القدس أو لا يجيز مسلم لنفسه زيارته حتى لا يكرّس الاحتلال أو يعترف بها أمرا واقعا.

العوامل النفسية التي تشترك في التبليغ كقصدية المتكلّمين المشيرة إلى حالة ضميرية متعلقة برغبة معينة غالبا ما تكون عاجلة كلما تعلق الوضع بأمر أو نهي أو رغبة أو قسر أو إرادة، ... وكالعلاقات التي تتعهّد هؤلاء أو تكون مصدر مراسلة ورعاية فيما بينهم، وكالمعارف التي يتقاسمونها والمتماثلة لديهم في عقولهم أثناء عملية التبليغ، مثال ذلك أن معنى كلمة مثل فاشيّ أو فاشستي Fascite، وقمع répression ، ونظام ordre تتعلق بداهة بمن يتفوه بها، وبالظروف التي لُفظت فيها، ومن ثم، فإن المظاهر المقامية ذات الصلة الوثيقة بالموضوع تشرُط المعنى بقدر ما تشرط كذلك نمطية الخطاب، وتسمح في الوقائع باستعمال سجل رفيع إلى حدّ ما تبعا لدرجة التغاضي cunnivence الموجودة بين المحادثين، ... ونستطيع أن نخلص إلى أن المقام la situation غالبا ما يساعد انتقاء نمطية الخطاب فيما يخص المرسل، وما يحمله هذا الانتقاء من معنى بالنسبة للمستقبل المعني.[1]"

السياق القريني

ولا يستبعد الدارسون أن كل حدث أو واقع مقامي يمكن أن يكون سياقا قرينيا contextualité ، بمعنى أنه مدرج ضمنيا في الملفوظ تحت

---

1. Dictionnaire de didactiques des langues, P : 505.

شكل من الأشكال اللسانية : إن فلاناً سيستقبل أخاه العائد من الخارج في مطار وهران يومه الخميس على الثامنة مساء، يعني أن الأخ الغائب يعود من الخارج، حتى وإن يبقى الملفوظ غير خال من عدة تساؤلات لا تملأ فراغها القرينة السياقية الحاضرة، لأن المتكلم قد يضطر أحيانا تقليص الإعلام لسبب من الأسباب كعلم المستقبل بالأخ العائد، أو لعدم حاجة ذكر اسمه...

وليس السياق وقفاً على قرينة وحيدة، بل على قرائن لا نهائية في مجال التعبير الذي تتشكل صفته ونوعيته بتشكل الخطاب وطبيعة التواصل وغرضه، ويمكن رصده داخل المنظومة القواعدية النحوية بشكل أفضل من رصده وتعيينه في شبكات لغوية أخرى كالأساليب المجازية والخروقات الدلالية مثلا، فإذا قرأت :

إذا عيشَ في خير امرئ ونَوَاله   تَوَالَى عليه الحمد من كل جانب

احتجت إلى قرينة نحوية تقدّرها ولتكن "إذا عاش الناس" بتحويل الفعل المبني للمجهول إلى بناء للمعلوم، لأن حذف الفاعل، كما ذكر النحاة، يكون لغرض من الأغراض "إما للإيجاز، اعتمادا على ذكاء السامع، وإما للعلم به، وإما للجهل به، وإما للخوف عليه، وإما لخوف منه، وإما لتحقيره هو فتَكْرِمُ لسانك عنه، وإما لتعظيمه تشريفا له فتكرمه أن يذكر، إن فعل ما لا ينبغي لمثله أن يفعله، وإما لإبهامه على السامع[1]"

فأنت إذا قرأت قوله تعالى :

– خُلِقَ الإنسان ضعيفا

– فاتّقُوا النار التي وَقُودُها الناس والحجارةُ، أعدّت للكافرين

– فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة

لن تكون بحاجة إلى أن تعرف بإيمانك وقاعدتك النحوية المحذوف في التراكيب القرآنية الثلاثة، وبإمكانك أن تستحضر تناصات قرآنية أخرى متناسبة مع أحد التركيبات (خلق الإنسان ضعيفا) :

---

1. جامع الدروس العربية، ص. 41.

- خلُق الإنسان ضعيفا
- إن الإنسان خلق هلوعا
- فلينظر الإنسان ممّ خلُق ؟
- خلق من ماء دافق
- يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث
- خلق الإنسان من علق
- خلق الإنسان من صلصال كالفخار

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ[1] ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾

- ....إلخ

التراكيب القرآنية السابقة محورها الفعل "خلق" ورد تارة مبنيا للمعلوم، وطورا جاء مبنيا للمعلوم، ودلّ في الحالتين سياقه على ضعف الإنسان ووهنه. ولذا قيل : "القرآن يفسرّ بعضه بعضا"، وأما الفعل "خلق" ذو الوظيفة الأحادية، فسياقه ما يكنفه من وحدات خارج الملفوظ ذاته، سواء بني الفعل "خلق" للفاعل أم المفعول، ولكن السياق فيما ورد سياق مقامي مشترك في قصده بالنسبة لما جاء في الملفوظات الإلهية، وبالنسبة لمن هُم موجهّة إليهم، لكنها ليست كالملفوظات البشرية التي عادة ما تتقيدّ بزمان ومكان معينّين، أجل، لا يخلو ملفوظ إلهي من مكان أو زمان يُوحَى به إلى من يختار من عباده، ولكنّ الزمان والمكان كليهما متحرك، أي يتوسعان توسعا يتناسب مع كل متلفظ أو سامع أو قارئ متدبر، والصفة التي يتميز بها متلقي الملفوظات القرآنية هي التي تقوم بدور التحيين والموْقَعَة لها، خلافا للملفوظات البشرية المتأثرة بعوامل تعمل على إنجازها مرة من الداخل، ومرة من الخارج، أي إما بتوظيف عناصر لسانية وأخرى غير لسانية، وإما بإشراكهما معا.

السياق بين الإحاطة والمحيط

والإشارات السابقة العابرة تذكّرنا بما كان نادى به روبير غاليسون Rober منذ عام 1973 بأنه لما كانت اللغة (الفرنسية) لا يوجد فيها مصطلح عام يوضح في وقت واحد مفهوم السياق كجوار لساني ومفهوم المقام كجوار خارج لساني، فإنه يقترح اقتراض مصطلح محيط Entourage لمفهوم جديد يشار به إلى مجموعة عوامل لسانية (السياق) وخارج لسانيات (المقام La situation) والتي تؤلّف قضية التلفظ.[1]

ويرى لسانيون أن مصطلح الإحاطة l'environnement لن يكون أفضل من كلمة l'entourage بوصفه مرادفا ثابتا للسياق، ولكنهم ينحون منحنى مشتركا من أن الإحاطة لوحدة لسانية هي مجموعة وحدات لنفس المستوى الذي يتقدمها ويعقبها في ملفوظ مسلّم به، وهذه الوحدات هي التي تحدّد الشكل والوظيفة، والمحتوى للوحدة المعنية، فإحاطة مونيمة "إنسان" في "خلق الإنسان من علق" المؤلفة من مونيمات : خلق، الـ، من، علق، تحدّد الشكل لهذا الكائن المخلوق من العلق، ومونيمة "خلق" في التركيب نفسه (الـ، إنسان، من، علق) تشترط الشكل للمونيمة خلق، وإنسان ينتقي محتواه، لأنك تجد اللفظة ذاتها قد تنتقي لها محتويات أخرى :

يَصْرَعْنَ ذاَ اللُبِّ حتى كأنْ لا حراك بـــه ؟
وهــــنَّ أضـعفُ خلـق الله إنْسانَــــاَ

عوى الذئب، فاستأنَسْت بالذئب إذا عوَى
وصـوّت إنســـــان فكدْـــــتُ أطِيـــرُ

والواقع أن الإحاطة l'environnement في منظور اللسانيات التوزيعية أنسب استخداما من إلصاقها بالسياق، طالما أن التوزيعية تُحدّد كحاصل إحاطات لوحدة لغوية في مدونة معطاة، وطالما أن الوحدة اللغوية نفسها لا تتضح إلا بتوزيعها، ومع ذلك، كما ترى، فإنا نشعر بشيء من التداخل مما يُعْنَى

1. Dictionnaire de didactiques des langues, P : 192.

بالسياق تارة، ومما يُعنى بالإحاطة تارة أخرى، ويظهر لك جليا من تعريف التوزيعية في اللسانيات البنيوية، وفي الملفوظات المعبّرة عن معان في لغة أن توزيع عنصر هو ما يحصل عن كل الإحاطات لهذا العنصر (أو السياق)، وهكذا فإن تتابع مورفيمات الطفل المعْتَبَرَ كعنصر وحيد يعيّن انطلاقا من جمل ذات معان: – الطفل يعدو – الطفل يرمي الكرة – الطفل سعيد."[1]

السياق والفضاء الدلالي

ولمّا كان السياق أياً كان قريبا أم بعيدا، لا يخرج عن كونه فضاء دلاليا خاصا ومتحركا إلى ما لا نهاية، فإن بعض اللسانيين مثل بنفنيست ينحي باللائمة على ورثة دي سوسور من وظيفيين وبنيويين وتوزيعيين، حين أقصوا إلى وقت طويل المعنى من المجال اللساني، بدعوى أن دي سوسور اعتبر الجملة "هي النمط الأفضل للتركيب، غير أنها تنتمي إلى الكلام لا إلى اللسان"[2]، وعلى العكس من هذا "يجب أن نسند إلى اللغة لا إلى الكلام جميع أنماط التراكيب المبنية، بحسب صيغ نظامية، ... ولكن يجب الاعتراف أن لا حدود هناك واضحة في مجال التراكيب، ذلك بين واقعة اللغة التي هي علامات الاستعمال الجمعي، وواقعة الكلام الخاضعة للحرية الشخصية"[3]، وهو بذلك أي دي سوسور، يهتم بالوحدات اللسانية كما هي، والتي نستطيع أن نخلّصها من خلال تقطيع / استبدال "لكن مسألة الدلالة الإجمالية لملفوظ، والتي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في سياق ومقام خطاب تتدخل فيهما عوامل اجتماعية أو نفسية، لم تطرح بالنسبة إليه"، مع أن كلمة بذاتها على الرغم مما حظيت به من تواضع اجتماعي ليست شيئا خارج السياق، بل ليست أكثر من انتساب إلى قاموس.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى فلسفة لغوية للتأكد مما سبق:

– العَلَقُ: الدم الغليظ، والقطعة منه علَقَة.

– العلَق: جمع علقة، وهي دودة الماء المعروفة.

---

1. Dictionnaire de didactiques, P : 164. Jean Dubois.

2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 151–150.

3. نفسه، ص.151.

– تَجَشَّمْتُ لك أو جَشِمْتُ إليك عرقَ القِرْبة (معناه الشدّة)

– العلق : الذي تُعلَّق به البكرة من القامة : يقال : أعرني علَقك، أي أداة بكرتك

– العلَق : الهوى :

ولقد أرَدْتُ الصبرَ عنك فعاقني علَقٌ بقلبي مِن هواك قديمُ

ولقد عَلِقَها بكسر اللام وعلق بها عُلوقا وعِلْقاً وعلَقاً وعلاقة

– علِق يفعل كذا، طفِقَ أو بدأ

– علِق حوضي نُغَرٌ مُكِبٌّ إذا غفَلْتُ غفْلةً يَعُبُّ[1]

– العلَق : ما تتبلّغ الماشية من الشجر، ومثله العلْقَة، أو كل ما يتبلّغ به من العيش، فهو علُقة

– علِقَت الدابة : إذا شربت، وعلقت بها علقة

– علِقَت المرأة : حبِلتْ

– علِقَت الإبل العضاة : تَسنمّتها أي رَعَتْها من أعلاها لا من أدناها، لأن كل شيء يعلو شيئاً فقد تسنمّه.

– علِق الظبي في الحبالة (شَرَكُ الصائد)

– ....إلخ

وهل من أحد يستطيع أن يفهم مثلهم : "علِقَتْ معالِقها، وصرّ الجنْدُبُ"[2]، إذا لم يدخل عوامل خارجية لفهم التركيب، وكلما جهلنا أو تجاهلنا عاملا من تلك العوامل الخارج لساني، فإن إرسالنا أو استقبالنا لهذه المرسلة لن يكون إلا إرسالا أو استقبالاً وهميّين.

---

1. النغر: قيل: ضرب من العصافير أحمر المنقار، ويَعُبُّ: يَحْسُوه جرعا بعد جرع.

2. الضمير في علِقَتْ يعود على الرِّشاء (الحبل جمعه أرشية)، وأصل المثل أن شخصا انتهى إلى بئر، فربط رشاءه برشائها، ثم صار إلى صاحبها فادّعى أنه مجاور له، فقال له صاحب البئر : ما سبَبُ ذلك ؟ قال : علِقَتْ رشائي برشائكم! لم يعترف به آمراً إياه بالرحيل من حرمة أرضه، فقال: "علِقَتْ معَالِقهَا، وصَرَّ الجندُبُ" أي جاء الحرّ، ولا يمكنني الرحيل.

ومن هنا إذا ركّزنا على الواقع القواعدي، فإني أقول (دون تفصيل طبعا) :

– علقت : فعل وفاعل، وتاء التأنيث الساكنة
– معالقها : مفعول مضاف، ومضاف إليه
– وصر : الواو حرف عطف، وصر : فعل ماض...
– الجندب : فاعل مرفوع ... إلخ

وحتى هذا التحليل الإعرابي تحليل ميتافيزيقي لا صلة له باللغة كمنظومة قائمة بذاتها، وأما إذا ركّزنا على السياق المقامي، فإننا لا نجد عنصرا لسانيا يدلنا عليه، ويهدينا إليه، إلا إذا راعينا إحالات مرجعية قد تكون صحيحة، وقد تكون زائفة، ومع ذلك تقودنا إلى المعنى الذي علِقَ بالبنية الهدف، بل من الغرابة أن نفكر في الوحدة اللغوية التي نعبّر بها عما نريد تبليغه غيرنا، بل يمكن القول إن الدلالة على الشيء والعناصر التي نستعملها تدل على المعبّر عنه توأمان يولدان معاً، فإذا تردّد متكلم أي تردّد، وهو يتلعثم، فإنه ليس بمتكلم طبيعي، بل متكلم متعلّم بعيد كل البعد عن أن يكون مهيمنا على اللغة التي ينتمي الآخرون، دونه، إليها.

مـا فـوق لغـوي

ومن ثم، فإن اللسانيين يعنون بـ Extra-linguistique كل ما هو فوق لغوي أو غير لغوي، أي كل ما هو خارج حقل اللسانيات، الأمر الذي اضطر البنيوية التوزيعية الأمريكية إلى القول بأن المعنى بالمجال المافوق لغوي. وما يفصل اللساني عما هو فوق لساني يمكن أن ينتقل تبعا للمدارس اللسانية، وما نتفق عليه أن هذا المصطلح يخص كل ما هو خارجي عن اللغة، ومن الحقائق المافوق لغوي مثلاً أشياء عالمنا التي تتمكن العلامات في لغة من تسميتها دون أن تلتبس مع هذه العلامات.

وهناك تقارب ولربما تداخل أحيانا بين المصطلح السابق (غير لغوي) و(para-linguistique ما يصحب اللغة)، ما دام أن para-linguistique يُعنى بها العناصر التي لا تدخل في عداد النظام اللساني بحصر المعنى،

ولكنها تصاحب وتدعم التبليغ الشفهي "ويتعلق الأمر أساسا بحركات، وتعابير الوجه، والتنغيم التعبيري أو الانفعالي، والذي يتنوع من شخص إلى آخر، وحداته لا تعتبر وحدات قائمة بذاتها، وهذه العناصر المربوطة للمعنى الذي يتطابق مع المرسلة اللسانية، وعادة ما تدعى هذه المرسلة مرسلة انفعالية Affectif". [1]

النص

وما أشير إليه آنفا يضطرنا إلى استحضار شبح النص بوصفه تتابعات طويلة منتهية أو فقرة أو جملة أو كلمة أحيانا، لأنه من العبث الزمني أن نتصور سياقا لغويا أو ما فوق لغوي بمعزل عن نص، حتى وإن كان غير واحد من اللسانيين يتساءل: "هل توجد نصوص ؟ وعلى الأصح، هل من الممكن أو اللاممكن بيان أولويات لسانية بالتأكيد، وبكيفية متماسكة لتحديد تتابعات مقالية، والتي نسمّيها "نصوصا" ؟ عدة مفاهيم تتصادم بشأن هذه النقطة." [2]

من اللسانيين من يقيم مفهومه النصّي بصورة جوهرية "أدبيا" على الحدس الذي يتصوّر خطابات معروفة بكل بساطة كبنيات مغلقة والمسماة نصوصا، وهذا الصنف يجيب إيجابيا على المسألة المطروحة على وجود وهوية النص، وما يطرح أمامهم من مشاكل بخصوص الأولوية اللسانية أو غيرها لتحديد ماهية هذا النص، فإنهم لا يتردّدون من الانطلاق من مبدأ البحث عن البنية الداخلية لهذه النصوص بناء على تعدّد مستويات التحليل الممكنة، وهذا مسعى هائل لا ينبغي الاستهانة به، لأنه يقرّب ما هو بعيد، ويترجم ما هو مجرد حدس إلى حدث لساني تتحدد بموجبه السياقات اللغوية أو المافوق لغوية، حتى وإن كنا لم نصل حتى الآن من الناحية البنيوية إلى القطع بأي مستوى، نبدأ، ولا الحسم بأولوية.

ومنهم من يطمح أو يسعى إلى الإضفاء على النص الإجراء الكلاسيكي المطبق على الجملة "وأمام هذه الصعوبة ...، فإنهم يرون أن

1. Dictionnaire de didactiques des langues, P : 397.
2. Les voies du langue, P. 105.

الحل الأكثر نجاعة، وبكل بساطة، أن نسلّم بوجوده، وأن نأخذ أشياءه كأشياء أولوية غير معرّفة، وهذا الحل يمكّننا لاحقا من البحث التدرّجي عن بنيته الداخلية، ولكنه يفترض أكيدا نمذجة مجرّدة جدا بالنسبة إلى الحقيقة المقالية الملحوظة، وإذا فنجازف بأننا ربما لا نصف إلا حوادث مفتعلة لخطابات مُتَخَنَّة، نادرا ما تكون أقل تجريدا من "جمل."[1]

وفريق ثالث، ومن ضمنهم بنفنيست، يرى أنه لا توجد وحدات خطاب ذات بعد أعلى من الجملة، وحين نقول خطابا، فإننا لا نعني به إلا تتابعا لجمل من طرف إلى طرف، وهذا الرأي يقوم على تصورّ خطّي للخطاب، لأن هذا الأخير لا يشكّل إلا من جمل متتابعة الواحدة تلو الأخرى، وهذا الفريق يرى أنه لا يوجد ثمّت نصوص، بل الشيء الوحيد الذي يمكن دراسته مقاطع خطاب طبيعتها محدّدة اعتباطيا بغية اكتشاف العلل التسلسلية الموجودة في العمل بين الجمل المتتابعة.

وسواء أتبنينا هذا الموقف أم ذاك، فإن ما لم يَعُدْ يشكّ فيه دارس لساني حصيف أنه لا يمكن أن نحررّ توضيحا لبنية تتابع فيه دون ذكر مكوّنات عدة لفعل التبليغ أو تصرفه إزاء هذا التتابع الكلامي، "لا يمكن وصف نص دون سياقه في الوقت نفسه."[2]

مقـام الخطـاب

وإذا عدنا إلى بعض المعاجم اللسانية الموسوعية، فإنها تسمّي مقام الخطاب situation de discours المجموع الحاصل من ظروف أو حالات يجري في وسطها فعل التلفظ سواء كان خطّيا أم شفهيا "ويجب أن يُفهم من هذا وفي الوقت نفسه المحيط الفيزيائي والاجتماعي حيث يأخذ فيه هذا الفعل مكانه، والصورة التي تتكون لدى المكالمين[3] Les interlocuteurs،

---

1. المرجع السابق، ص.105.

2. السابق، ص. 106.

3. Interlocuteur – الشخص الذي يتوجه إليه المتكلم في مقام التبليغ، والذي يدُلَى به أو يَبْرَز في الخطاب بوساطة الضمير أنت أو أنتم أو هو المتكلم الذي يستقبل ملفوظات منتجة من قبل متكلم أو من أحد يجيب، أو هو المتكلم الذي تارة يكون في موقف مستمع، ومرة في موقف مرسل. أي مستقبل ومُنتج لملفوظات، يتبادل المعلومة مع متكلم أو متكلمين في مقام التبليغ.

وهوية هؤلاء، والفكرة التي تحدث بين الواحد والآخر (بما في ذلك الإبراز بأن كل واحد يملك ما يفكر فيه الآخر عنه)، والأحداث التي تقدَّمَتْ فعل التلفظ (ولا سيما العلاقات التي كانت من قبل لدى المكالمين، وخاصة تبادلات الكلام حيث التلفظ مرتبط بالقضية المتبادلة.[1]»

ويردف المصدر ذاته أننا نسمي أحيانا هذه الظروف ces circonstances السياق le contexte، غير أنه من الملائم الاحتفاظ بهذه اللفظة الأخيرة لنشير بها حصريا إلى المحيط اللساني لعنصر الكلمة مثلا أو لوحدة صوتية phonique داخل ملفوظ، أي إلى سلسلة العناصر التي تتقدم وتلحق هذا الملفوظ، أو أيضا، وبكلمات أكثر تقنية، ما يسبق ويلحق التراكيب les syntagmes التي تنتمي إليها هذه العناصر، ومن الإثبات التافه أن جلّ أفعال التلفظ (وربما كلها) يتعذر تأويلها إذا كنّا لا نعرف إلا الملفوظ المستخدم، وإذا كنّا نجهل كل ما يخص المقام : la situation ليس بمقدورنا فقط ألا نعرف الدوافع والأفعال للتلفظ، بل خاصة – وهو الشيء الوحيد الذي سيكون معتبرا هنا – لن يكون بوسعنا أن نصف بدقة القيمة الجوهرية للتلفظ، ولا حتى المعلومات التي تُبلَّغ.[2]»

الواصلات الكلامية والمقام

وبعد أن يتساءل المصدر السابق عن كمون هذه التبعيّة، فإنه يشير إلى أن معرفة المقام يمكن أن يكون ضروريا في حالات لا مناص منها إذا أردنا أن ندرك فحوى التراكيب اللسانية المتواصل بها شفهيا أو خطيا أو تراثيا، وتُجْمَل هذه الحالات الضرورية في معالم مختلفة :

من أجل تعيين المرجع لتعابير مستخدمة في تواصل ما، فإنه من الطبيعي أن نفعل ذلك بالنسبة لما يُعرف بعنصر الإشارة أو المسمّى البُرْهانيّ" الضّمْنيّ" déictique ، علما بأن التعريف الاشتقاقي لهذه الكلمة يعني "ما يشير أو ما يدلّ"، وهو بذلك مرادف لاسم الإشارة Démonstratif ، وتقابل هذه الكلمة اللفظة الإنجليزية Shifter التي عرّفها جسبرسن

1. Dictionnaire encyclopédique des sciences du language, P : 417.

2. المرجع السابق، ص. 417.

Jespersen بأنها صنف من كلمات يتنوع المعنى فيها مع المقام[1]، وهذا ما قصده جورج مونان بقوله : "الذي يشير إلى صنف من الأشكال دون تأشير مضبوط، وبإحالة متقلّبة، والتي لا يمكن أن تكون محجوزة Saisie إلا في علاقة محصورة في المقام، وإذا جُهل المقام، فإنه لا يمكن للمرجع أن يكون ماثلا : انظر هذا ! تعال هنا !، وهكذا فإن تعريف صنف عناصر الإشارة لا يشمل وحسب أسماء الإشارات، بل أيضا ضمائر مثل أنا أو أنت، والظروف مثل هنا "الآن."[2]

وأما دُبْوا DUBOIS وجماعته، فجاء عندهم أن العناصر الإشارية ذات البراهين الضمنية كل عنصر لساني يعمل في ملفوظ على الإحالة إلى :

1. المقام الذي ينتج فيه هذا الملفوظ،

2. وقت الملفوظ (الزمن وطابع الفعل)،

3. المتكلم le sujet parlant (نمذجة Modalisation).

ومن ثم، فإن أسماء الإشارة، والظروف المكانية والزمانية، والضمائر الشخصية، وأدوات التعريف ("كل ما هو قريب" مضاد لـ "ما هو بعيد" مثلا) هي عناصر إشارية، وتؤلّف المظاهر العلاماتية للغة[3]، وتطلق الإحداثيات الديكتيكية (عناصر الإشارة) على المقام الذي ينتج فيه الملفوظ مُعَرَّفاً بعلاقته بالمتكلم (أنا) بدلا من (هنا) وبزمن الملفوظ (الآن) بدلاً من (وقتئذ) أو (غداة غدٍ) ... إلخ.

وبعبارة أقرب أو أزيد وضوحا أن الدِّيكتيك صنف من الكلمات معناها المرجعي لا يمكن أن يُعرَّف إلا من خلال الإحالة إلى المقام أو السياق، وبالأخص إلى المتكلم والمستمع في فعل كلامي مسلَّم به، ويُمَيِّزُ عموما الدِّيكتيكات العلاماتية indiciels من الديكتيكات التكرارية anaphoriques، فالأولى تحيل على المقام (متكلم، مستمع، ظروف) الذي يكون الملفوظ فيه مُرسلا : معناه المرجعي مربوط بفعل الكلام الوحيد الذي تظهر فيه الديكتيكات، إنها الضمائر المنفصلة أنا، أنت (والتي لا توجد إلا بصفتها

1. Essai de linguistique générale, P : 178. انظر (هامش 3)
2. Dictionnaire de linguistique, P. 98
Georges Mounin.

مُحَيَّنَةً في الخطاب)، كما ذكر بنتفنيست، ظروف الزمان والمكان : الآن، أمس، هنا، هناك، ... بعض أسماء الأعلام : جان، ميشال، تعارضا مع لويس الرابع عشر، جان دارك، ... أسماء الإشارات، هذا، هؤلاء، ... وهناك بعض اللسانيين من يحتفظ بعبارة الديكتيكات ليستدل بها فقط على الديكتيكات العلاماتية، والأهم من هذا أن ندرك الفرق بين الديكتيك التكراري لفظة واحدة لغرض بلاغي مثلا، والذي يحيل إلى عنصر مرموز codé ، والديكتيك العلامي المحيل على عنصر غير مرموز، غير أن كل مقام يمكن أن يترجم إلى سياق، وعليه فإن الديكتيكات تارة تكون تكرارية Anaphorique، وطوراً تكون علاماتية وبهاتين الصفتين يمكن للدكتيك أن يشير إما إلى الشخص الذي نتحدث عنه (علامتي)، وإما إلى شخص شرعنا نتحدث عنه.[1]

جاكبسون والواصل الكلامي

ومع ذلك، فإن رومان جاكبسون ترجم اللفظة الإنجليزية shifter أو shift إلى المعنى الذي أشار إليه جسبرسن، أي صنف أو فئة من الكلمات التي يتنوع أو يتقلَّب varie معناها مع المقام، ولكنه ترجمه إلى كلمة embrayeur أي الواصل، لأن الفعل embrayer معناه التقني أو الميكانيكي هو وصل المحرك بالآلة التي يجب أن يحركها أو يديرها، ومن ثم فإن كلمة embrayeur كلمة تقنية ميكانيكية استعارها جاكبسون ليعني بها الواصل الكلامي، وبالضبط وحدات رموز الاتصال code التي تصل qui embrayent المرسلة le message بالمقام la situation، لأن المرسلة المحيلة على الوحدات المتواضع عليها تناظر ما يسمَّى في المنطق، كما ذكر جاكبسون، الصيغة الدلالية الذاتية autonyme للخطاب، عندما أقول (جاكبسون) : الجِرْوُ حيوان ملاطف، أو الجرويتباكى Pleurniche فإن كلمة "جرو" تشير إلى كلب صغير، على حين أنه في جملة مثل "جرو"، فإن هذا الأخير اسم يشير إلى كلب صغير أو باختصار "جرو يشير إلى كلب صغير، ..."[2]

ويعني جاكبسون من وراء هذه الخلْطة الغريبة هنا أن الجرو مستعمل بتسميته الخاصة، علما بأن جاكبسون وجيله من اللسانيين الغربيين

كانت لهم جرأة مبالغ فيها أحيانا في استعمال مصطلحات لسانية عامة وخاصة لا تزال لسانيات بداية الألفية الثالثة في الشرق والغرب تنوء بثقلها الغامض أو المتعدد، والتي لم ينضج كثير منها حتى الآن.

ولعل ما يهمنا مما نحن فيه بصدد الواصلات الكلامية التي تدخل في صميم المحيط أو السياقات المقامية التي تُنْتَج وتُتَدَاوَل فيها الخطابات والبلاغات الكلامية.

أن ننطلق من تحديد جاكيسون للواصلات بقوله : "كل رمز لساني يحوي صنفا خاصا من الوحدات النحوية التي يمكن أن ندعوها الواصلات" les embrayeurs، ويرى الدلالة العامة لواصل كلامي لا يمكن أن يكون محدَّداً خارج إحالة على مرسلة.

ويستأنس جاكبسون ببيرس Peirce الذي كان يرى – مثلا – أن كلمة "أحمر" في العربية مشتركة مع الشيء الذي تمثله من خلال قاعدة إصطلاحية، في حين أن دلالة (Index مثلا إبراز شيء باصبع) لها علاقة حياتية أو وجودية مع الشيء الذي تمثله، ومن ثم، فإن الواصلات الكلامية "تؤلف بين الوظيفتين وتنتسب هكذا إلى صنف رموز – دلالة symboles – index. ومن الأمثلة المدهشة التي استشهد بها بوركس Burks الضمائر الشخصية، فـ"أنا "je يعيّن الشخص ينطق" enonce أنا "زط كما أن العلامة "أنا" من جهة لا يمكن أن تشخّص شيئه دون أن يكون هو نفسه مشتركا associé" بوساطة قاعدة اتفاقية" وفي رموز اتصال مختلفة يكون المعنى ذاته معزواً إلى تتابعات مختلفة مثل "أنا" je، "أنا، ذات"ego ،"ich، "I" إلخ، وإذاً، فإن "أنا" رمز، ومن جهة أخرى، فإن العلامة "أنا" رمز، ومن جهة أخرى، فإن العلامة "أنا" ليس بوسعها أن تجسدّ شيئها إذا لم تكن في علاقة حياتية existentielle مع هذا الشيء، فكلمة "أنا" المشير إلى المتلفظ هو في علاقة حياتية مع التلفظ، وإذاً فهو يشتغل كدلالة comme un index.[1]"

ومما يردفه جاكبسون أننا ظَلَلْنا غالبا ما نفكر بأن الطابع الخاص للضمير الشخصي والواصلات الكلامية الأخرى كان يكمن في غياب

1. المرجع نفسه، ص. 179.

دلالة signification عامة وحيدة وثابتة موردا رؤية بيرتراند روسل Bertrand Reussell من أن الواصلات أو بمصطلحه "الخصوصيات الذاتية المركز" معرفة من جراء أنها لا تنطبق على أكثر من شيء واحد وفي الوقت معا، مثال ذلك أن الرابط "لكن" في قولك : ما صافحني علي لكن سمير، أو : ما فعلت شرا لكن خيرا، أو كقول الشاعر :

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولاكِ اسقِني إن كان ماؤك ذا فَضْلِ

لا يعبّر في كل مرة إلا عن علاقة استدراكية adversative بين تصورين مُعْطيَيْن (علي وسمير أو شر وخير ...) وليس الفكرة العامة لتعارض "في الواقع أن الشيء الوحيد الذي يميّز الواصلات عن كل المؤلّفات الأخرى للرمز اللساني، هو الفعل الناتج عن إحالتها الإجبارية إلى المرسلة.[1]"

تـأويلات ومعنيـان

لكي نختار بين تأويلات مختلفة في ملفوظ غامض، فإننا نقدم على الإختيار بين معنيين اثنين :

حلفْت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمـرء مَذْهَـبُ

نستطيع أن ندرك من هذا البيت بأن النابغة يعتذر للنعمات سواء أساء إليه أم لم يسئ، وسواء علمنا أنه تغزل بغزل فاضح في زوجه المتجردة أم نُحل ذلك الشعرُ وادّعِي عليه، أو كقول النابغة الجعدي رداً على القشيري (سوار بن أوفى) :

فإن يكُن حاجِبٌ مِمّنْ فَخَرْتَ بِهِ فلـمْ يكُـنْ حاجِـبٌ عَمّاً ولا خَالاَ

والذي يضادّ التأويل السابق، لأن الجعدي يعتب على القشيري الذي يفخر بحاجب المذكور، وهو تميمي، بينما الشاعر الفاخر (القشيري) من بني عامر بن صعصعة، وبعبارة أبسط، فإن ملفوظاً مثل "استأجر عمر سيارة في هذا المساء" تبعا لما نعرف أن عمر يمتلك سيارة أو لا يمتلكها.

قيمة الخطاب الكلامي

إن طبيعة فعل أو حدث الكلام أو أبعدَ من ذلك قيمته المخاطب بها مختلفة تمام الاختلاف عن فعله الواقعي أو حيثيّته، ومن ثم فإن من أجل تحديد الطبيعة لفعل الكلام أو صنيعه المكْتَمل، كما في الأبيات التالية المختارة من بائية النابغة الشهيرة في مَدْحِ عَمْرِ وبْنِ الحارث الأصْغرِ (وقيل غير ذلك) الغسَّاني، حيث سنقف على أضرب شتى من فعل الكلام تكمن قيمتهُ المخاطب بها التي نَحَتْ مناحي متباينة مما لا يمكن أن يقال فيها إنها صادقة، ولا مما يجوز أن يقال فيها ؟ أدبيا وفنيا وجمالياً ... ؟ إنها كاذبة، ولكنها جمعت ما جمعت من إحساس شخصي عميق أقرب إلى الصدق منه إلى أي إدعاء، ولكن ما أضفى عليه من أوصاف بعيدة جسدّها قريبة في :

م–1. كِليني لِهمٍّ يا أُميْمةَ ناصِبِ وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

م– 2. وصَدْرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّهِ تضاعفَ فيه الحزْنُ من كلِ جانبِ

م– 3. تقاعسَ حتى قلتُ ليس بمنْقضٍ وليس الذي يرْعَى النجوم بآيبِ

يجعل تصرّف خطابه، وكأنه مجرد استهلال، مع أنه إبلاغ تكاد وحداته تشتغل داخل نفسه الهشة نتيجة لما حدث له في محيط تعفّن فجأة، والذي طالما ظل يلبس دفئه، يتمتع بنعيمه في الحيرة التي علقت به، وعلق بها، ولم يكن من لياقة التصرف الكلامي ولا أدبيته أن يشير إلى دوافع تلك الهموم التي طاردته لولا لجوؤه اضطراراً إلى محيط ملكي عربي آخر آمنه وفتح له بلاطهُ، وهذه الأبيات (م – 3) تذكرّنا بأبيات امرئ القيس الخمسة في وصف الليل :

مَ – 1. وليلٍ كموج البحر أرخى سدُولَه

عليَّ بأنواعِ الهموم ليَبْتلي

مَ – 2. فقلتُ لهُ لمَّا تَمَطَّى بصلْبه

وأردَفَ أعجازاً، وناءَ بِكَلْكَلِ

مَ – 3. ألا أيها الليلُ الطَّويلُ ألاَ انجلِ

بِصُبْحٍ، وما الإصباحُ منك بِأَمْثَلِ

مَ – 4. فيالك من ليلٍ كأنّ نجومَه

بِكُلِّ مُغَارِ الفتلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

مَ – 5. كأنّ الثُّرَيَّا علِقَتْ فِي مَصَامِهَا

بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

لأن كلا النصين يشعّ بمشاعر نابعة من فعل كلامي قلما تجد لهما مثيلا في الشعرية العربية القديمة، فالنصّان لا يفيداننا بوعود صادقة أو كاذبة، ولكنهما ينمّان عن تصرف كلامي إنساني بلَغ ذروته الإبلاغية، فالرجلان ضربا صفحا عن كل قريب أو بعيد، وعادا إلى محادثة أنفسهما، ولما كان هذا يدخل في مجال الهواجس، التفتا إلى بث شكاواهما إلى رفيق ثقيل، ولكنه يسع الجميع، فلم يجد غير الليَل صديقا مخلصا وملاذا واسعا يُنْحيان عليه وعلى ظواهره الكونية الثابتة والمتحركة، المرهبة والمأنوس بها استرحاماً واستعطافاً، وكأن زوال الليل زوال لهمومهما، وانفراج لآلامهما، على الرغم من أن النصين لا يَخلُوان من مفارقات غريبة وغير بريئة، لأن اتخاذ النابغة الليل كإحالة مرجعية سِياقُها بيِّن ومعلوم لدينا، ولكن إحالة إمرئ القيس إليه بعد دخول وخروج وذهابه مذاهب شتى في فنون وحوادث غزلية يدعو إلى الاستغراب، لأنه انقلاب مفاجئ سريع، ولا يرتبط سياقا بما تقدمه خلافا للنابغة الذي صاح من أول كلمة "كيلني لهمّ يا أميمة ..." أي دَعِيني وما أنا فيه من همّ وغمّ قاصدين نحوي، وليس الوقت وقت لهو وغرام، فما أنا فيه من ورطة أجلّ من أي التفات إلى حبك أو ما سبق أن حدث بيني وبينك، كأن الرجل يعتذر إليها تعللاً لا نفورا مركّزا على الليل الذي تتحرك فيه السواكن، وتدبّ فيه الأشياء التي لا تدبّ في النهار، وتسكن فيه الحركات إلا ما كان مشبوها،...

قيمة الخطاب في سياقه الكلي

هل نستطيع القول إن النابغة زوّدنا بمعطيات أو معلومات أو أبلغنا بوعود أو ... ؟ إذا كانا نميل إلى هذا التساؤل إيجابيا فينبغي أن نأخذ في الاعتبار السياق الخارج لساني أكثر من السياق اللساني، مادام أننا لا

نتفاعل مع المتكلم هنا إلا إذا أحلنا ما نتكلم عنه على أحداث وظروف وملابسات غير لسانية، وهذا يقودنا إلى تساؤل مشتق من التساؤل السابق : ما الذي يقوم على الآخر ؟ السياق اللساني أم السياق المافوق لساني ؟ أم كلاهما يتبع الآخر ؟ إننا لا نشك لحظة في أن المتكلم كان يعاني فعلاً من هموم، وليل طويل، وهول هذا الليل عليه، وحزن مضاعف، إلى درجة أنه يئس من قدوم الصبح، لكن ما علاقة الليل وطوله أو قصره ونجومه ... بكل ما كان فيه ؟ لو تعاملنا مع الليل تعاملا داخليا، فهل كنا نفهم شيئا فهماً صحيحا ؟.

إن التساؤلات السابقة تجعلنا نستحضر أ منظومة لسانية لا يُقَيَّض لها أن تشتغل أو تشغلَّ ما ينتمي إليها من أنظمة داخلياً، إلا وهي تشتغل في الآن ذاته من الخارج، وما هو داخلي لساني لا يعني بشكل منتظم أنه يستغني جزئيا أو كلّيا عما هو خارجي، بل بمجرد الانتقال الآلي للغة من خلال ملفوظاتها ومدوناتها شفهيا أو خطيا إلى وضع آخر، تكون قد تمازجت لسانيا وغير لساني؟

قَوْمِي هُمُ قتلوا أُمَيْمَ أَخِي ... فــإذا رميْتُ يُصيبُنــي سَهْمــي

فلَئِنْ عفَوْتُ لأعفُوَنَّ جلَــلاً ... ولــئن سَطَوْتُ لأوهِنَــنْ عَظْمِي

فأنت ترى أن العناصر القواعدية المستعملة عفوياً وسليقياً في هذه الملفوظات، لن تفيدك في شيء إذا أفرغتها من سياقها غير اللغوي المحيل على عوامل يعرفها الخبراء بأيام العرب، وسواء عرفنا هذا المتكلم (وعلة بن الحارث) حتى نعرف من هم قوزمه الذين قتلوا أخاه لأم لم نعرف، فإن ذلك لا يغير من ثبات الملفوظات، ولكن ثباتها سلبي بدون عرضه على قيمه الدلالية ومحيطها السياقي اللذين تزاوجا فيها تزاوجا نهائيا، لكن هذا التزويج لا يشبه مجرد تزاوج ثنائي بين صورة وتصور أو مدولول ودالّ، بل هو أبعد من ذلك، إنه تزاوج انصهر فيه الشكل بمادته، والحدث اللساني بواقعة، وليست الدلالة التي نستخلصها من كل هذا إلا انعكاساً طبيعيا لظروف وملابسات أو حتى مفارقات ذلك التزاوج برمتها.

وليس غرابةً أنْ نَظْفَرَ بأي تزاوج بين ملفوظ ومادته فيما تتلقى دون أن نكون بالضرورة شهود عيان على تزاوج بين تصور وصورته إذا وقفنا

تلَقَّيْنَا داخل الملفوظ كشكل قواعدي دلالي، ولكن هذا الظفر لن يكون مكتملا فيما نتلقّى، وسيترك في نفوسنا فراغات دلالية متفاوتة تبعا لدرجة وخطورة الملفوظ، إذا لم نستدع أشياء أخرى تعوّض هذه الفراغات جزئيا أو كليّا، فالملفوظات الأربعة السابقة :

1. قومي هم قتلوا أميم أخـــي ← ماذا أفعل ؟

2. فإذا رميت يصيبني سهمـي ← ممن أنتقم ؟

3. فلئن عفوت لأعفونْ جلـــلاً ← أي عفو هيّن ويسير قياسيا بالقتيل

4. ولئن سطوت لأوهنَنْ عَظمي ← لا ينعكس الانتقـام عليّ إلا وهنا

لا يعبر ملفوظ فيها تعبيرا لسانيا داخليا انطلاقا من نسوج قواعدية عامة، ولا حتى من فوارق دلالية نتيجة لفوارق صوتية، لأنها ملفوظات تخطّت ساحلها الدلالي الباهت، ومجازها الخارق، بإحالتها على معاني نقرأها قراءة فضائية يمكن أن نسميّها السياق الفضائي الثابت، باعتبار الظروف التي أسهمت في إنتاج هذه الملفوظات لم تتغير، ولن تتغير بالنسبة إليها، وأما تصورٌ استحالتها إلى ملفوظات أخرى، فيجب العمل على تصور سياقات فضائية عديمة.

وما أشار إليه دي سوسور منذ زهاء قرن من أن العلامة سلبية كلما اقتصرت على الدال والمدلول منعزلين، وإيجابية في كليتها وشموليتها[1] لا يبعد عمّا نحن فيه، ولكنه لا يرتبط إلا بشقّ واحد لا بشقَّيْه، لأن ما نحن بصدد تناوله من ملفوظات لا تتزاوج تزاوجا تمتزج فيه الوحدات امتزاجا أبيض، بل أبديا، إلا إذا تشابهت الدوافع والبصمات، بل حتى إذا ما قدّر لهذه أن تحدث من باب المفارقات والعجائبيات المتعارضة مع سنّة الكون وطبيعة الأشياء، فإنها لا تحدث بالطريقة نفسها.

لا وجود في اللغة إلا الملفوظات

وقد يُوَجَّه إلينا عتاب خفيف أو عنيف بدافع أن اللغة مسار متحرك لا يعرف التوقف، ونهج أبعد من أي تصورّ، وفي الوقت نفسه، يشار هنا إلى

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 147–145.

حشر كل ملفوظ أو بنية في مَحْشَرَ مغلق، والواقع أن عتاباً مثل هذا سيكون مصدره نابعاً من اختلاف وجهات رؤانا، ومتماشيا مع تقديرنا المتباين للأشياء المعيشة أو الممكن معايشتها، ومدى تفسيرنا لها.

وما أقصر عمر وحدات لغوية إذا وقفت حياتها على دالّها ومدلولها، وما أتفه وجودها وبريقها إذا ربطت كينونتها بملفوظات مبتذلة، وتراكيب جاهزة، ونصوص قشورها ينمّ عن جوهر لبابها تقرؤك قبل أن تقرأها، ولذلك فإن رؤية دي سوسور "لا وجود في اللغة إلا الاختلافات، ومن غير حدود إيجابية، ... وما يوجد في علامة ما، من فكرة معينة، من مادة صوتية هو أقل أهمية مما يوجد في العلامات الأخرى"[1]، بدعوى أننا قد نقدم على تغيير عبارة ما من دون مسّ معناها وأصواتها من خلال تعديل جواري في عبارة أخرى مصاحبة، قد تتعارض جزئيا أو كليا مع ما نطرحه هنا.

قد نتفق مع دي سوسور بأنه لا يوجد في اللغة إلا الاختلافات اتفاقا لا يخلو من تحفّظ، فنحن قد نتلفظ صوتا بأكثر من صورة:

وقفت فيها أُصَيْلالاً أسائلها   عَيَّتْ جوابا، وما بالربع من أحد

حيث لا مانع يمنعنا من نطق "أصيلال" "أصيلاناً" حتى قال العرب (ابن الأعرابي): "النون تعاقب اللام، قد قالوا: الإبل والابن، والتّهْتَانِ والتَّهتال، ويقال: لابل ولابن، وحكى الأثرم عن أبي عبيدة: ثور رِفلّ ورفنٌ، وهو الذنب السابغ، وسجّيل وسجّين، ... وجبريل وجبرين، وإسرافيل وإسرافين، وكذلك حروف الأعجمية كلها"[2]،أي اختلاف الدال صوتيا – جزئيا على الأقل – لا يؤول إلى اختلاف المدلول في كل حال، ويمكن أن نستدل على ذلك بمستويات أخرى على هشاشة الرؤية الديسوسورية:

يَا دارَ مَيَّةَ بالعليا فالسَّنَدِ   أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ

حيث يُرْوَى "يا دار مية، بثلاث بنيان سانتكسية مختلفة، ولا تؤدي إلى أي اختلاف دلالي:

يا دارَ ميَّةَ ——→ نصبا للدار بالنداء وإضافتها

---

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 145.
2. ديوان النابغة الذبياني، ص. 3.

2. يا دارُ مَيَّةُ ← رفعا للدار بالنداء المفرد، ورفعا لمية بالإخبار عنها

3. يا دارِ ميَّةُ ← اجتزاء عن الياء بكسرة الراء.

وهذا الضرب السانتكسي الثالث وردوروداً كثيرا في القرآن العظيم "يَوْمَ يَدْعُو الداعِ إلى شَيْءٍ نكُرٍ" وأشعار العرب، وهذه الظواهر عامة وليست خاصة وأقل أهمية من أن يلمح إليها لاستبعاد فكرة دي سوسور، وفي هذه الحالة، ألا يمكن أن نقول أفضل "لا وجود في اللغة إلا الملفوظات" ؟.

لا فضل لعلامة على أخرى

كما أن إشارة الرجل إلى أن ما يوجد في علامة ما في مادة صوتية أقل أهمية مما يصاحبها من علامات أخرى، بدعوى أننا إذا زحزحنا أو غيّرنا عبارة ما، فإن هذه العملية لا تزحزح معنى العبارة وأصواتها، غَيْرُ مُسَوَّغ لدينا إطلاقا، لأن العلامات إذا كانت تتفاعل صفاتها التحتية بفضل تفاعلها السطحي وفق طاقة لغوية لم تُكْشَفْ كلّها حتى الآن، فإن هذه الظواهر لا تجيز لنا أن نتصورّ تبايناً في الدرجات النظامية للسان بين علامة وأخرى إلى حد المفاضلة بينها :

ب – 1. عَلَيَّ لعمْرو نعمةٌ بعد نعمةٍ ... لـوالده ليست بذات عقـاربِ

ب – 2. حلفت يميناً غيرَ ذي مثْنَوِيَّةٍ ... ولا علمَ إلاّ حُسْنُ ظَنٍّ بغائـبِ

ب – 3. لئن كان للقبرَيْنِ قَبْرٍ بجلَّقٍ ... وقبر بصيداءَ التي عند حاربِ

ب – 4. وثقتُ له بالنصر إذ قيل قدْغَزا ... بِغَسَّانَ غسَّانِ الملوكِ الأشايِبِ

ب – 5. إذا ما غزا بالجيْش أبْصرْتَ فوقهمْ ... عصـائبَ طَيرٍ تهتدي بعصائِبِ

ب – 6. ولا عيْبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلولٌ من قِراعِ الكتـائبِ

هل يمكن القول إن علامة أكثر أو أقلّ أهمية، فيما احتوت عليه ملفوظات النابغة من علامات ؟ هل كان يحقّ أن نعدلَ عمْرًا الوارد في (ب – 1) باسم علم آخر ؟ وهل كان يجوز أن نزحزح كلمة "لوالده" أي والد عمرو بن الحارث بن أبي شَمِرِ الغساني محور القصيدة كلها بشخص آخر ؟ وهل بإمكانك أن تدّعي أن علامةَ "حلفت" أكثر أهمية مما يليها في (ب – 2) ؟ وهل لك أن تفكر في أن قبر الحارث أبي الممدوح (عمرو) أكثر أهمية من قبر جده الحارث الأعرج ؟

وهل جلّق كعلامة مكانية أحسن من نظيرتها صيداء في (ب– 3) ؟ وأية علامة أقل أهمية تراها في (ب – 4) أو (ب– 5) أو (ب – 6) مما يصحبها من علامات تسبقها أو تلحقها؟ قد يُسوِّلُ لفضولي أن يبدّل علامة بعلامة كتبديله مثلا :

– وثقت له بالنصر (بالفوز) إذ قيل قد غزا (رمى)

– إذا ما غزا (غدا) بالجيش أبصرت (ألمحْت) فوقهم

– عصائب (جوارح) طير تهتدي (تقتدي) بعصائب

– ....إلخ

لكن، كما ترى، أن هذه التعديلات تعديلات صوتية صورية، ولئن عدمت التغيير الدلالي : فإنها تظل أو ما كان شبيها بها أو قريبا منها في حقلها الدلالي تعديلات جوفاء تراوح مكانها، ولا تؤثر فيما حولها إلا لتتأثر في آن بما يسبقها أو يلحقها، والخلاصة أن لا فضل لعلامة على أخرى ؟ وكل علامة لها لباسها وقياسها ووزنها وكينونتها المنعدمة في أية علامة أخرى، وإذا ما حدث، وهذا ما لا نتصوره أن يحدث، أن اكتست علامة برداء غيرها، فلن تكون تلك العلامة إلا رداء واحدا لا ثاني لهما.

رؤية جاكبسونية في التحليل اللغوي

ولعله غير بعيد مما نحن بشأنه كتب رومان جاكبسون ذات يوم أن الفكر البنيوي المعاصر وضّح أن اللغة نظام من العلامات، وأن اللسانيات ليست إلا جزءا متمّماً لعلم العلامة أو السيميوطيقا أو السيميولوجيا بمصطلح دي سوسور، واعترف جاكبسون بأن التعريف القروسطي Médiévale للعلامة، والذي بُعث من جديد في عهدنا أثبت أنه لا يزال صالحا ومخصبّا "كما أن الأمارة المكوّنة لكل علامة عموما والعلامة اللسانية خصوصا، تكمن في طابعها المزدوج : كل وحدة لسانية منشطرة ثنائيا وتشمل مظهرين أحدهما محسوم، وآخرهما واضح، من جهة الدال، ومن جهة أخرى المدلول، وهذان العنصران اللذان يكوّنان العلامة اللسانية (والعلامة بوجه عام) يفترض ويدعو لا محالة كل واحد منهما الآخر."[1]

بيد أن الباحثين لمّا شرعوا يطبّقون نظامياً المناهج العازلة المسلَّم بها كطرح من قبل النحاة الجدد، لاحظوا أن هذين الطابعين للظواهر اللسانية المتجلية في المحسوس، والواضح، أضحيا يُفْهمان حصريا كمجالات مغلقة ومستقلة، ولم يُحْسَبْ أيّ حساب لوحدة العلامة، مع أن "دراسة أصوات اللغة متبورة عن وظيفتها الداليّة تفقد حتما ارتباطها الضيق باللسانيات كمادة سيمولوجية، وتكون مهدّدة بأن تصير مجرد فرع لعلم النفس وعلم الأصوات، وأما ما يخص المسألة اللسانية الصرّف للدلالات، فإنها إما نُسِيَتْ في خضم البحث في مستواها الخلفي النفسانيّ، وإما تُرِكَتْ تختلط مع "المملكة الظاهرية extrinsèque للأشياء غير اللسانية" تبعا لعبارة شارل موريس.[1]

ويؤكد جاكبسون أنه من غير الممكن الوصول إلى تحليل جيد لعلامة لسانية أياً كانت، إلا بلجوئنا إلى دراسة مظهرها الحسيّ sensible في ضوء مظهرها الواضح (الدال في ضوء المدلول) وبالتبادل، مذكّرا أن الثنائية غير القابلة للانقطاع Le dualisme indissoluble لكل علامة لسانية تشكّل إحدى نقاط الانطلاق للسانيات الحديثة في معركتها المستمرة التي أدّت بها إلى جبهتين : الصوت والمعنى "وهذان المجالان يجب أن يكونا مكتملين ومندمجين في حقل علم اللغة، وينبغي تحليل أصوات الكلام نظاميا systématiquement في ضوء المعنى، والمعنى ذاته بإحالته إلى الشكل الصوتي، نستطيع، بل يجب علينا أن نُحلّل علامة لسانية معقدّة إلى عناصرها المؤلفة لها، نستطيع بل ينبغي علينا أن نحصل أخيرا على أصغر الوحدات النهائية، يجب أن يكون لها وجهان، وتشمل في الوقت نفسه وجها داليا، وآخر مدلولياً.[2]

العلامة والسياق

نأمل ألا نكون قد خرجنا عما نحن بصدد تناوله، ولكن السياق المقامي شكل من أشكال الغياب والاستحضار ومع ذلك فلا يمكن فصله

---

1. نفسه، ص. 162.
2. نفسه، ص. 162–163.

عن علامته، لأن مفهوم العلامة بالنسبة للسياق المقامي يجب ألا يُفهم ذاك الفهم الضيق الذي أشار إليه دي سوسور، وثمّنه لاحقا رومان جاكبسون ومن والاه من اللسانيين الغربيين، بل ينبغي أن يُمَطَّط مفهومها ليشمل العلامة السياقية في كليتها وشموليتها بجميع ملابساتها ومفارقاتها.

وإذا كنا قد لجأنا إلى أفكار لسانية على حساب جوانب أخرى، إن لم تكن جوهرية فهي مكمّلة على الأقل، فلاعتقادنا أنه "من الصعب القول إن المقام لا يعني اللساني، حتى لو ذهبنا إلى أن اللساني هدفه الأساس الملفوظات في ذاتها، لا تصرفات التلفظ الخاصة، لأنه، وبالضبط، لا نشعر بارتياح كيف يوصف ملفوظ دون الإفصاح عمّا يؤول إليه هذا الملفوظ في مختلف أنماط المقام حيث يمكن أن يكون مستخدما، وكل من يعتبر الملفوظ خارج المقام، فإنه يجد نفسه ملزما وبشكل دائم لتمييزه بالنسبة إلى مقامات ممكنة، حتى عندما يتعلق الأمر بوصف محتوى بسيط لكلمات.[1]

المقـام والكـلام

ويردف المصدر ذاته أن معظم اللسانيين يرون أنه من المستحب والممكن في الوهلة الأولى لوصف اللساني أن نتجرد من أي اعتبار للمقام، مع احتمال اللجوء بعد ذلك، كعامل مستقل وإضافي، إلى الآثار المقامية "الأمر الذي يؤدي إلى القول بأن المقام يخصّ الكلام لا اللسان، أو على الأقل ناحية مهمّشة من اللسان قريبة جداً من تحويلها إلى كلام، وتبعية الملفوظ حيال مقاماته استعمالا سيكون، والحالة هذه ظاهرة، وإلا فإنه عرَضي accidentel، وفي جميع الحالات هو ثانوي استجابة على وجه الخصوص لاهتمام اقتصادي.[2]"

أجل، إذا كان المقام la situation يتعلق بالكلام الذي هو إنجازي فردي، لا اللغة التي هي منظومة علامية تحوي في أحشائها الطبيعية أنظمة لا تَعيرُها إلى سواها إلا لتردَّها إليها مجسَّدةً في مستويات تكلمية ليس من مصلحتها أن تُحصرَ، فلأن السياق اللساني الذي هو أقرب إلى اللغة منه إلى

1. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, P. 418.

2. نفسـه، ص. 419.

الكلام، قلما يتحقق بمعزل عن أمور عرضية لا تخطر على البال مقدَّماً، ولا وأنت بصدد أمر، أو نهي، أو التماس، أو تبليغ مرسلة ما، ولذلك يتساءل لسانيّون وأنثروبورجيون عماً إذا كانت هناك معايير موضوعية بديلة للمعايير المافوق لساني لتحليل كلمة تحليلاً دلاليا "هل هذا يعني أن تحديد وحدات حقول دلالية يجب أن يقوم بالضرورة على أحكام هي في آن اعتباطية وذات نظام غير لساني؟ ليس ذلك ضروريا، كما يبيّن لنا مثلاً معظم البِنْيَنَات الدلالية Structurations sémantiques الموضوعة خاصة من قبل أنثروبولوجيين (لا سيما الأمريكيون)"[1]، مثلما نجد ذلك في كلمات القرابة والنسب، وأنظمة الأسماء والألقاب، ومفردات الألوان، والمصطلحات العِرْقية من كل الأنواع (نباتية بلدية، صِنَافة الأمراض في مجتمعات بدائية، ألفاظ متعلقة بعلم الكونيات، ... إلخ).

وإذا كان بعض اللسانيين يوصي بضرورة التمييزيين ما ينجم عن البنية اللسانية، وما ينجم عن البنية السوسيوثقافية، فإن لسانيا مثل جان بيرو JEANPERROT يذهب إلى حدّ أن ينكر معه بوضوح الطابع اللساني لبنيات محَصَّل عليها ما دامت العلاقات بين الكلمات غير مدموغة لسانيا منتهياً إلى أن "هذه البينات في حد ذاتها ليست بينات لسانية، بل هي بينات سوسيولوجية ونفسية."[2]...

السياقات لا يشمل بعضها بعضاً

إن حصولك على علم لا يمكّنك من الهيمنة على هذا العلم، لتفعل ما تشاء وكيفما تشاء، بل كل في الأمر أنه يمكّنك، وأحياناً يُعْجِزك أو يحْزُن لك، من ممارسة نشاطك العلمي أو الفني أو المهني بهذا العَلم، وكذلك اللسانيات ما هي إلا منفذ تنفذ من خلاله إلى أغوار اللغة لتتصرف أدائيا بموجب حَواجزها وأوامرها ونواهيها، لا بمحض إرادتك، وفي كل حال، فحريتك موصولة بحدودها وطوائفها التي وجدت نفسك هكذا ذات يوم لا تتذكره تتكلم لغتها :

---

1. La sémantique fonctionnelle, P. 83. Claud Germain.

2. نفسه، ص. 48.

ج – 1. توهّمت آياتٍ لها فعرفتُها	لستةِ أعـوامٍ، وذا العامُ سابعُ
ج – 2. رمادٌ ككُحْلِ العين ما إنْ تُبينُه	ونؤْيٌ كَجِذْمِ الحوض أثلَمُ خَاشِعُ
ج – 3. كأنّ مُجَرّ الرامساتِ ذيولها	عليه قضيـم نمقَّتْـهُ الصوانِـعُ

فأنت إذا استثنيت القواعد النظامية الخاصة بالعربية هنا، فأي شيء تراه لسانياً ؟ الآيات ؟ ستة ؟ سبعة ؟ العام ؟ الرماد ؟ النؤي المتكسّر ؟ الرامسات (الرياح) ؟ الذيول (وهل للرياح ذيول) ؟ القضيم (الصحيفة البيضاء) ؟ ... وإذا كانت الوحدات لسانياً على أنها لا تنتمي إلى علم آخر سواها، فهل يفيدك ما هو لساني لتلقّي هذه الملفوظات النابغية إفادة تغنيك عن إحالات تاريخية واجتماعية ونفسية وثقافية، ومن ثم، فإن السياقات مثلها مثل الجمل، من حيث كونها غير منتهية، وأن المتلقي الطبيعي لها هو الجمل، من حيث كونها غير منتهية، وأن المتلقي الطبيعي لها هو الذي يدرك أبعادها الدلالية أو الفنية أو الجمالية، وأغراضها المعبَّر بها، والتي لا ينبغي أن تتجاوز بعدها الزمني والمكاني، وهذا هو الأصل في أي تبليغ سياقي، وكلُّ بُعْدٍ سواهما ما هو إلا فضول وتطفّل لاحقان، فالمعنيّ هنا زمانا ومكانا بالتبليغ النعمان بن المنذر المعتذر له من المتكلم، ولا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يحلّ محلّ أحدهما أو كليهما زماناً أو مكاناً.

ومثلما تتعدّد الجمل دون أن يشمل بعضها بعضاً، وإلا كنا نراوح مكاننا، ونقول الشيء نفسه، فكذلك الشأن بالنسبة للسياقات، فإنها تتعدد دون أن يقوم سياق لساني مكان سياق لساني آخر، على الرغم من أننا لا نستبعد تشابه الظروف والأحداث الإنسانية التي قد تنبع من محيط يتسم بالعوامل نفسها، ولكن هذا لا ينهض حجة لتصور سياق أصل، وآخر فرعي، إلا من باب المفارقات التي لا تخلو من عجب.

السيـاق وليـد محيطـه

ولئن وقفنا على تراكيب تبدو متشابهة نظما، وتحوي سياقات متقاربة تارة، أو هي بعينها تارة أخرى، في نصوص قديمة غالبا، فذاك يعود إلى ضيق المجال الفضائي والبيئوي اللذين كانا ينهل منهما المبدع

أو المتكلم، ولذلك تداول الناس الأمثال فيما بينهم حتى تحلّ محلّ تكرار أي سياق بعينه دلاليا ولسانيا، وصارت التواصلات اللغوية الاجتماعية والخطابات السياسية توظف أمثالاً نيابة عن التبليغ العارض الذي لن يكون أكثر بلاغة ومفعولا لدى المرسل إليه.

هل كان لشاعر فحل اعترف له بالإمارة الشعرية، وهو فان، كامرئ القيس أن يقول:

د– 1. فدعْ ذا وسلّ الهمّ عنك بجَسْرةٍ

ذمول إذا صام النهارُ وهجَّرا

د– 2. تُقَطِّع غِيطاناً كأنّ متونَها

إذا أظهرتْ تكْسَى مُلاءً مُنَشَّرَا

د– 3. تُطَاير ظُرَّانَ الحصَى من خلفها وأمامِها

إذا نَجلتْهُ رِجْلُها خَذْفُ أعْسَرا

د– 4. كأنّ صليلَ المَرْوِحينِ تُطِيرُهُ

صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدانِ بِعَبْقَرَا

واصفا ناقته بهذه الصفات البيئية والطبيعية والثقافية، بأنها ناقة نشيطة تسير سيرا سريعا، والحر في أوجه، وتقطّع ما انخفض من الأرض سهلا ووعرا، حتى كأن ما يبدو عليها وسط سراب ملاحف بيض منشورة، وتطاير الطويل من الحصى والعريض المحدّد بأخفافها الصلاب لم تتأثر عُجاها (صُلَيْب في اليدين والرجلين) بما قرعته مناسمها لشدة خَلْقها وصلابة جلدها، حتى كأن الحصى المتطاير خلفها وأمامها المفرَّق (المنجول) رَمْيُ رامٍ أعسَرَ، وكأن صوت الحجارة إذا رمتْها ووقع بعضها على بعض يشبه صوت الدراهم الزُّيُوف (الزائفة) التي ينتقدها الصيْرَف بعبقر ذات الشهرة بدراهمها الرديئة ؟.

إن الرجل لم يزايد علينا، وهو يُضْفِي على ناقته صفات اشتقّها من محيطه الذي لم يكن محيطا ثقافيا معقدًا ولا موسعاً ولا مجهولا، فكان الفرد المزامن لتلك البيئة والعصر فوق ثقافة موروثة استوعبها استيعابا

طبيعيا وآليا، ولذا فإن ما يتفوه به هو الكل في الكل إزاء كل موصوف يصفه أو موضوع يطرقه، ولا يبقى له إلا قول من قال : "لكل مقام مقال."

وإذا وجدنا الرجل نفسه يكرر كلامه، فإن ذلك لم يكن من باب التكرار الذي يشبه تكرارنا أو الدال على النسيان الذي يضارع تناسينا، بل من باب السليقة التي لا تتجزأ، والبيئة التي شرب ثقافتها شربا سائغا لا شعورياً، فجاء ما نراه تكراراً عند ذلك الفرد قياسيا على تكرارنا ترْداداً آلياً لا يتحكم في آلياته، وإلا عدم المزايا والعادات اللسانية التي تبخرت بعد برهة لدى غير هذا الصنف، لتتحول في وسطه إلى سليقة عامية، وحتى هذه مبتورة، لأنها سليقة جزئية وبسيطة لكونها لا تتجاوز البعد التواصلي لسانيا ومكتسبات ثقافية بسيطة لا تسمن ولا تغني من جوع.

ومن ثم، فإذا صادفنا سياقات لسانية أو سياقية مقامية أو هما معا على مستوى متكلم جاهلي واحد :

هـ ـ 1. أحارِ ترى برقاً أُرِيكَ وميضه
عَذارَى دَوارٍ في المُلاَءِ المُذَيَّلِ

هـ ـ 2. يضيء سناه أو مصابيحُ راهب
أهانَ السليطَ في الذُّبَال المفُتَّلِ

هـ ـ 3. قعدْتُ لهُ وَصُحْبَتِي بين حامرٍ
وبين إِكَامٍ بَعْدَما مُتَأَمَّلِ

هـ ـ 4. وأضحى يَسُحّ الماءَ عن كلّ فِيقَةٍ
يكبُّ على الأذْقَانِ دوْحَ الكنَهْبُلِ

هَ ـ 1. أعِنّي على برْقٍ أراه وميضِ
يُضيء حَبِياً في شَماريخَ بِيضِ

هَ ـ 2. قعدت لهُ وصُحْبتي بين ضَارِجٍ
وبين تلاع يَثْلِثٍ فالعَرِيضِ

هَ ـ 3. وأضحى يسُحّ الماء عن كلّ فيقَةٍ
يَحُوز الضِّبَابَ في صفاصفَ بِيضِ

وهذا أشهر من أن يُمَثّل له، وما أكثر وروده وتواتره، فإن هذا كله لا يعني إطلاقا أن الشاعر نفسه كان ينسخ نفسه، ولئن فعل ذلك، وهو واعٍ، فذاك أقرب إلى الهذيان أو العجز عن أن يأتي بغير ما أتى، أي ليس هناك تناص ولا اقتباس ولا تكرار بين (هـ – 1، هـ – 2، هـ – 3) و(هـَ – 1، هـَ – 2)، ولا بين (هـ – 4) و(هـَ – 3) بالرغم من أننا لا ننكر من أن المبدع ربما يتناص لاحقه مع سابقه، وهو تناص داخلي أحادي غير مركب.[1]

وحتى لا يأخذنا التحليل اللساني في تياره الفني والبنيوي، فإننا نؤشر إكباراً وإجلالاً بطابع الإعجاب والتقدير لأولئك الشعراء العرب القدماء الذين كانوا يعيشون ثقافتهم الاجتماعية السليقية البريئة محلياً ويصوغونها في أشكال لسانية تشعّ بسياقات تبدو عليها الملامح والمشاعر الإنسانية الصادقة، وهذا ما نَحنّ له متمنّين أن نعود إليه ذات يوم، إذا ما أردنا لإبداعنا أن يتسلق شجرة العالمية، وإلا كنا نقول ونَصْدُرُ عن أشياء، ونحن أشياء أخرى، فشاعرنا لا يأنف ولا يرى غضاضة، وهو يصف هطول المطر، من أن يدعو لأخته المدعوة ضعيفة والبعيدة عنه بالسُّقْيا وأنه يهدي ما يقرض من شعر إليها :

فأَسقَى به أُختِي ضَعَيفَةَ إذْ نَـأَت وإذْ بَعُدَ المَزَارُ غَيْرَ القَرِيـضِ

إذا أُفْرِغَ السياق اللساني، ولا سيما المقامي من جانبه الواقعي وعلته التي أنتجته أو كانت دافعا لإنتاجه، فلن تكون له بصمات ذات أهمية، فالأخت ضعيفة هنا مفهومها سياقياً على مستوى الكلام غير مفهومها على مستوى اللغة، إذ المستوى الأول يجسّد المحيط اللساني الكلي لضعيفة باعتبارها هنا وحدة لسانية، ولكننا لن ندرك هذا السياق إلا بالالتفات في آن إلى كل العناصر الحاضرة معها جوارا عن قرب أو بُعْد، لأنك لا تفهم "أسقَى به أختي ضعيفة" إذا لم تعد إلى ما قبلها، ولا تفهم "القريض (الشعر)" إذا لم تعرف أنها كانت تقطن بعيدة عن أخيها، وأما المستوى الثاني، فيصدق على كل وحدة لسانية تصلح في الوقت نفسه لتشكيل المحيط المباشر للفونيمة ذات الرتبة الدنيا لتجد سياقها في

---

1. كنا بيّنا هذه الأشكال من التناصات في كتابنا "التحليل اللساني البنيوي للخطاب" (دار الغرب وهران، ط. 2000 / 1).

وحدة ذات رتبة أكثر علُواً، فالفونيمة [M] يمكن أن يكون لها سياق في المورفيمة (AMI صديق)، وهذه يمكن أن تكون هي نفسها سياق الجملة (tu es mon ami أنت صديقي).

وسواء أكان المستعمل للغة سليقياً فيها أ مكتسبا لها، فإنه كمرسل ملزم بالاشتراك مع مستمع أو مرسل إليه في أية مرسلة بينهما، ولكي تكون مفهومة، فإنها تستدعي سياقاً لسانياً أو مقاماً خارج لساني يحال إليه، ورموزاتصال، أو لغة مشتركة بين مرسل ومرسل إليه، وأخيرا تستدعي المرسلة اتصالا وقناة فيزيائية وارتباطا نفسيا بين المتكلم والمستمع، والاتصال وظيفته أن يسمح أو يُسَوِّغ إقامة التبليغ وصيانته، وبنص جاكوبسوني "كل مُرْسَلَة message من مرسِل un destinateur يجب أن تكون مدركةً على نحو وافٍ adéquatement من قبل المستقبل le receveur، وكل مرسلة مرموز لها بوساطة مرسلها ومطلوب أن تكون قابلة للفكّ لدى مستقبلها، وكلما كان هذا الأخير أقرب من رمز الاتصال المستعمل من قبل المُرسِل، كانت كمية المعلومة المحصلّ عليها أعظم، فالمرسلة (م) ورمز الاتصال المستتر (ر) لكليهما علاقات التبليغ اللساني، لكن الاثنين يشغّلان بكيفية انشطارية : كلاهما يمكن أن يكون دائما معالَجاً إما كأغراض للاستخدام، وإما كأغراض objets لمرجع .

الفصل الثاني
التحليل البنيوي للمعنى

موقف التوزيعيين من المعنى

من غير المنطقي أن نفكر في أي علاج سطحي أو عميق أو قريب من الوضوح، دون الإحالة على بعض النظريات اللسانية التي التفتت بشكل مقنع أو ارتيابي أو ترددّي إلى المعنى في إطار لساني صرف، حتى وإن كان هذا الإطار الأخير لا يتحقق خارج بنيته.

ومن أبرز اللسانيين الذي أثاروا فضول الباحثين في المعنى إلى اليوم ليونارد بلومفيلد الذي حاول أن يورّطنا في نزاعات سلوكية لا يمكن دراستها ضمن وقائع لسانية خارج محيطها التوزيعي وبصورر رياضية شكلية.

فهو يطلق على الوحدات اللغوية الدنيا التي يضفي عليها طابعاً حدسياً "المورفيمات" مقابل ما أسماه أندري مارتني "المونيامات"، ولكن المورفيم عنده لا يعني وحدة دنيا تشير إلى مدلول أو معنى بشكل مستقل صريح ذاهبا إلى أننا نتعامل مع أشكال فقط، ومن هذه الأشكال ما هو حر، ومنه ما هو مرتبط، ففي الكلمتين :

- Décorable (لا يمكن تزيينه)

- Croyable (ضممكن تصديقه)

يمثل الشقان : Décor و Croy أشكالاً حرة، في حين أن المقطعين الباقين يمثلان أشكالا مرتبطة لا يمكن لك أن تعثر عليها في لغة كالفرنسية لوحدهما، ونجد أنفسنا هنا بالنسبة لـ Croy : أمام ما يعرف ببديل صرفي أو شكلي allomorphe ليس إلا وكل لغة طافحة بمثل هذه البدائل لكن

بتقنياتها المعهودة، وليس ضرورة أن تكون هذه البدائل الصرفية الدالة في حدّ ذاتها على وحدات معنوية في نهاية الكلمات، فـ"أَنَيْتُ" تتصدر الأفعال المضارعة في العربية، وهي أشكال مرتبطة بما يليها تبعاً للضمائر المنفصلة، وقد تكون في نهاية بعض هذه الأفعال المسندة إلى جماعة الذكور أو نون النسوة (كتبوا ←كتب + وا، كتبن ←كتب + ـن، ...) أو في الأفعال الخمسة، كما تلحق الأسماء مثل المثنى، جمع المذكر، أو الأسماء المسندة إلى الضمائر المتَّصلة.

غير أن التوزيعيين الذين يرون أن الوحدات اللغوية لا تُحَدَّد إلا من خلال العناصر التي تجاورها او تحيط بها أو يمكن لها ذلك، اجتزأوا بتصنيف هذه الوحدات ورصدها على مستوى أشكالها غير مكترثين بمعانيها، وجرّهم هذا الموقف الإقصائي للمعنى أنْ وجدوا أنفسهم في حرج علمي أو مأزق "حين تعرضوا لتحليل جمل يكون فيها لأصناف الوحدات اللغوية نَفْسِهَا التوزيعاتُ نَفْسُها بالرغم من أنّ الوظيفة النحوية (بنية المعنى) لهذه الوحدات مختلفة بشكل واضح"[1]، كما هو الحال بالنسبة للجملة الفرنسية :

J'ignore quels dangers redoutaient les soldats

والتي تحتمل أكثر من معنى مع أن لها بنية نحوية واحدة، إذ :

هل الخطر هو الذي يخشى الجنود أم الجنود هم الذين يخشون الخطر ؟

ومثل هذه الجملة السابقة :

Des enfants ont regardé les fleurs de le balcon

حيث لها تأويلان :

نظر الأولاد الورود من الشرفة.

نظر الأولاد ورود الشرفة.[2]

وأكثر مما أشير إليه أن التوزيع بمفهومه المقدّم لنا لا يستغني عنه السياق، بل يدخل في صلبه، وإلا فإننا نسمي التوزيع لعنصر مجموعة

---

1. علم اللغة في القرن العشرين، ص: 118 جورج مونان.

1. Initiation à la problèmatique structurale, P. 16-17.

المواقع التي يمكن أن يتموقع فيها العنصر الموزع، ولا يتموقع إلا في سياقات، أي "العناصر التي يمكن أن تظهر في السياقات نفسها تنتمي إلى الصنف التوزيعي نفسه، ونسمّي Co-occurrents (وقوع مصاحب) العناصر الوادرة بمعية الوحدة التي نبحث عن دراسة توزيعها، كما في السياق le contexte أو المحيط Environnement :

الذئاب تصطاد ———— # يمكن أن يرمز الفراغ (———) إلى الاصطياد بتوحش، مثلما يرمز إلى الخرفان[1]" حيث # يبيّن حد السياق، والخط (———) يمثل المكان الذي يُحتل من قبل العناصر الهدف لدراسة توزيعها، غير أنه لا يمكن القول بأن "الخرفان" و"بتوحس" تنتميان إلى صنف التوزيع نفسه، إلا إذا كان هذان العنصران يقبلان التبديل commutation (تعني هذه الكلمة حلول عنصر محلّ عنصر آخر من الصنف القواعدي أو المعنوي نفسه) بوفرة في المحيط، ويمكن لعناصر أخرى أن تظهر في المحيط ذاته (الفرس، الناس، ...) إذا قبلتها السياقات : # تصطاد الذئاب ———— بتوحش

مناقشة وتحليل

بمعنى أن التوزيع حتى لدى خلفاء بلومفليد، وخاصة هاريس حتى وإن حاول أن يحيد عن أستاذه لاحقاً لينتقل من التوزيع إلى التحويل منذ سنة 1952 على الأقل، هو مجموع السياقات التي يظهر فيها عنصر لساني في محيط لغوي متفاعل بصرف النظر عن كون هذا العنصر من التقطيع الثاني (فونيمة) أم التقطيع الأول (مونيم أو مورفيم).

وتحاول بعض الدراسات أن تدافع عن موقف بلومفيلد إزاء المعنى بدعوى أن أتباعه لم يستوعبوا أفكاره في ذات الموضوع، أليس هو القائل : "لكي نقدّم تعريفا صحيحا علميا عن معنى كل شيء لغوي، لا بد لنا من أن نملك معرفة صحيحة علمياً يُكَوِّن عالم المتكلم"[2]، لكن التطور الحالي للمعرفة الإنسانية لا ينهض بهذا الغرض، بل قال في السياق نفسه : "تحديد المعنى يشكلّ نقطة الضعف في دراسة اللغة، وأن الأمر سيظل كذلك ما لم تتطور معارفنا عما هي عليه الآن"[3].

---

1. نفسه، ص. 7.
2. علم اللغة في القرن العشرين، ص.120.
3. نفسه، ص.120.

ويظهر أن فكرة قبول المعنى من رفضها لم تجد موقعا ناضجا أو مركّزا مقنعا لدى بلومفيلد بدليل تردده تارة وصرامته المطلقة لإنكاره تارة أخرى، لكن تلامذته أخرجوا المعنى من اهتمامهم لفترة طويلة، وكان طبيعياً أن ينحو بلومفيلد ذلك النحو إزاء المعنى، بعدما اتسم منهجه بالمادية أو الآلية شبه المطلقة أسوة بما يجري في حقول علمية بحتة، مما جعله يرفض المنهج الذهني القائم على معطيات تأويلية حدسية لا على ظواهر علمية ملموسة، وكان لموقفه ذاك تأثر واضح بالفلسفة الوضعية التي دعا من خلالها أوغست كونت الإنسان إلى أن يعتمد عقله كليا لتبنّي ما هو يقين مستخلص من الملاحظات والتجارب والاختبار، وهنا بَعُدَ الرجل بعداً شاسعا عن ديكارت، وخاصة العلامة همبولدت الذي قال بالجانب الخلاّق للغة والذي أكده لاحقاً تشومسكي.

إننا نتفق كليا مع بلومفيلد بأن المعنى يمثل إشكالا كبيرا وضعفا عميقا في دراسة اللغة دراسة علمية مقارنة بحقول وظواهر أخرى تُمارسُ عليها تجارب مخبرية وقياسية، ولكننا لا نُسيغ فكرته القائلة : "لكي نقدم تعريفاً صحيحاً علمياً عن معنى (دلالة) كل شيء لغوي، لا بد لنا من أن نملك معرفة صحيحة علمياً عما يكوّن عالم المتكلم"، ولأن "التطور الحالي للمعرفة الإنسانية غير كاف لتحقيق هذه الغاية" مما أضلّ تلامذته الذين بقوا زهاء ربع قرن (بين عامي 1933 و1955) جامدين إزاء علم المعاني، على الرغم من أن بلومفيلد صرّح أن "دراسة أصوات الكلام دون اعتبار لمعانيها هو عملية تجريد."

هل من تحديد للمعنـى ؟

كان ماروزو Marouzeau في عهده يعرّف بكل بساطة معنى كلمة بوصفه مجموعة من التشخيصات Représentations القابلة لأن تكون مستوحاة من قبل الملفوظ لهذه الكلمة، فكلمة "بنت" تستدعي أفكارا معقّدَة حسب استخدامها في جمل مثل : بنت سمير، فهي بنت بدلاً من كونها "ولد."

ويرى آخرون أن مفهوم المعنى صعب جداً لموْضَعَته وتعريفه مقارنةً بـ"المدلول Signifié" و"الدلالة Signification" و"القيمة ... valeur" وبالفعل، إذا كان المدلول يُنَاط بوضوح بحقل اللسانيات، والدلالة يُعْنَى بها علماء النفس

واللسانيون، فإن المعنى يُغَشّي وقائع وتصورات أساسية أكثر من أن يُقَرَّب بمقارنة أو مقاربتين، ومن هنا تباينت المدارس اللسانية في مفاهيمه.

وتعرّفه بعض المعاجم اللسانية الموسوعية تعريفات محالة على لسانيين بارزين كما يلي :[1]

1. إن الكلمات المحالة على عالم وتجارب الإنسان مرتبطة تقليديا بمحتوى يقال له : "معنى"، وهناك محاولة لتصنيف المعنى تصنيفات عامة : معنى ملموس : حَصَاة كُلَوِيَّة Calculrénal

3. معنى مجرّد، والمعاني المجرّدة أكثر من الكلمات نفسها، وعبّر عنها القرآن الكريم : "قُلْ لو كانَ البحرُ مداداً لكلمات رَبّي لَنَفَدَ البحرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ كلماتُ ربّي، ولو جِئْنا بِمِثْلِه مَدَداً"، ومنها :

– "خَتَمَ اللهُ على قلوبهم"

– "في قلوبهمْ مَرَضٌ"

– "أولئك الذين اشْتَرَوا الضَّلالةَ بِالْهُدَى"

3. يتّسم المعنى تبعاً لنمط العلاقة الذين تضطلع به العلامة le signe مع ما يُشير إليه من حقيقة أو مجاز، ولا ينشأ المجاز إلا حين تعجز الحقيقة، لكن هل عيارية الدلالة la normalité sémantique شيء آخر غير انعكاس رؤية العالم، في حين أنه لكي يكون ثمت معنى يجب أن يكون هناك إحالة référence ، وهذا ما تنكره ملفوظات كلامية كجنس الشعر ؟ بل ليس الشعر وحده، الخطاب الشعبي اليومي مجازاته أكثر من حقيقته، وأما الأمثال فتمثل قمة المستحيلات :

– اللّي نَتْكَلْ علَى جارْتُو باتَتْ تْشيشتْو يابْسَة"

– "تجُوع الحرةُ، ولا تأْكُلُ مِنْ ثَدْيِها"

وأما القرآن الكريم فنوّع المثل والمجاز والحقيقة أو حقول المعاني حسب ما هو متعارف عليه ومعتاد بين أهل اللسان العربي، فخاطب الناس بقدر عقولهم وفق مدى إدراكهم "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ."

---

1. Dictionnaire de didactique des langues, P. 489-492

اختلاف الناس خارج المعنى لاداخله

والشائع في كل الدراسات الإنسانية أن الناس يختلفون فيما هو خارج سلطان المعنى الحقيقي، لأنه من الناحية الدلالية ربما وجدنا أنفسنا عاجزين، والسبب في ذلك أننا لا نجد مُحالاً إليه في الحقيقة مثلما تمثل لنا "كل واحد له الحق في خلق عالم يدل أو لا يدلّ على معنى، بل إن خرق القواعد السانتكسية والدلالية هو الذي يمنح الشعر ميلاده، أي هناك خروج عن المألوف بالنسبة لعيارية ثقافية واجتماعية، وأما الاستعداد لخرق القواعد والأعراف، فبقدر ما يندرج في إطار الكفاءة يندرج في إطار القواعد نفسها، لا شيء يمنع من القول : الأفكار الخضراء الّرِقَة تنام بعنف".الأمر الذي جعل اللسانيات، وخاصة اللسانيات التوزيعية، إلى وقت طويل تعتبر أن المعنى ليس قابلاً لأن يخضع إلى تحليل صارم، ونتيجة لذلك، لم تأخذ المعنى بعين الاعتبار إلا في إطار سلبي Négatif تتجاوز استطاعته أكثر من السماح بالقول بأن [b] يتعارض عن [v] في لغة كالفرنسية، لأن هاتين الفونيمتين مربوطتان بـ [ô] مثال ذلك أنهما تكوّنان وحدات من معاني مختلفة، كما هو الحال في الكلمتين (bon : حسن) وvont (يذهبون : من الفعلaller)، في حين أن [b] في الاسبانية غير مختلف فونولجيا مع [v] إذن إن [bamos] و[vamos] يدلان على ذات الكلمة التي تكتب [vamos] سواء نطقت [b] أو[v][1]، وهذه الأنماط الصوتية في العربية موجودة بكثافة لم ترصد رصداً علمياً مثلما ورثنا نطقها، وهي بدائل أو ترادفات صوتية allophones، وقد أشار إليها الخليل في معجم العين، وسيبويه في الكتاب، وابن دريد في الجمهرة، وابن جني في سر صناعة الإعراب،...

الفونيم والمعنى

إن اللسانيين الذين سبقوا تروبتزكوي وضعوا تصورين للفونيم :

أ– تصورا سيكولوجيا ظل سائدا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهذا التصور للبولندي بودوان (1929) الذي كان يهتم بالروابط بين اللغة والعوامل النفسية والاجتماعية، ولم يكن يقصد بعلم

---

1. Pour comprendre la linguistique, P. 149.
2. Dictionnaire de didactique des langues, P. 489-490.

الصوت النفسي La psychophonie إلا ما يقابل الصوت المحقق سيكولوجياً، أي "الصورة المجردة غير المادية التي لا تحتفظ من خصائص الصوت إلا بما يترك أثراً سيكولوجيا مشتركا لدى المتحدثين بلغة واحدة"[1]. وبتوضيح آخر أن ما يظن المتكلم أنه ينطقه ويتلفظ به شيء، وما يتلفظه فعلا شيء آخر، وقد تخلت مدرسة براغ لاحقاً عن هذا المفهوم السيكولوجي للفونيم.

ب- تصورا ماديا يختلف باختلاف السياق الصوتي فنحن ننطق لفظ الجلالة بالتفخيم في جملة :

- الله أكبر

ولكننا نتلفظه بالترقيق في جملة :

- باسم الله أبدأ

وفي الجملتين :

- يدب الصبيّ

- يصب المطر

نتلفظ الباء الأولى (يدب) مرققّة والثانية (يصب) مفخمة، وهذه كلها تنوعات سياقية لكلمة واحدة (الله) ولفونيم واحد (الباء).

وترى بعض المصادر اللسانية أن أغلب المدارس اللسانية تحاول، ومنذ مدة، أن تدمج المعنى عبْر تسميات مختلفة، فهي تميزّ عموماً بين معنى مَرْجعي مُنْتَمٍ إلا علامة – واقع، ومعنى بنيوي structurel تبعاً لوضع العلامات فيما بينها.

إن المعنى المرجعي référentiel نتيجة لما تمثله كل علامة لجزء من واقع العالم المعيش والمتواصل به ومعه، وهو لا يتكون من هذا الواقع نفسه، بل فقط بتماثله في الفكر، ويُسْتعان على تقريبه بأصغر وحدة معنوية لا يمكن لها أن تتم خارج الإطار لوحدة معنوية أكثر من نفسها sème (معنم)، بمعنى أن المعنى المرجعي يشار به إلى العناصر التمييزية Pertinents الدالّة على

1. علم اللغة في القرن العشرين، ص. 31.

الواقع المسمّى، مثال ذلك أن الطائرة والسيارة والباخرة "مَعَانِمَ" يختلف بعضها عن بعض، وأن الأريكة والكرسي "مَعْنَمَانِ" مختلفان،فلِأَريكة مُسْنَدَان، بينما لا يوجد للكرسي مَسْنَدَ، على الرغم من أن كليهما للجلوس.

المعنى البنيوي

وأما المعنى البنيوي أو العلائقي Relationnels أو الشكلي Formel، فلا ينْجُمُ من علامة لسانية لكونها مجرّد علامة، بل لتعارضها مع العلامات الأخرى في نظام لساني "فقيمة الكل هي في أجزائه، كما أن قيمة الأجزاء تتأتى من مكانتها في هذا الكل أو ذاك، ... صحيح، إن اللغة تقدم وحدات مستقلة دون علاقات تركيبية بأجزائها ولا بوحداتها الأخرى، وأشباه الجمل (oui, non، merci أي شكراً، لا، نعم)هي أمثلة جيدة على ذلك، غير أن هذه الواقعة النادرة لا تكفي على كل حال للإخلال بالمبدأ العام، وبحسب القاعدة، فنحن لا نتكلم بعلامات منعزلة، وإنما بمجموعة علامات، بل وبكتل منتظمة هي نفسها أيضا علامات، وفي اللغة إذا كان كل شيء يرجع إلى الفوارق، فإنه أيضا يرجع إلى تجمعات"[1]، بل لا وجود في اللغة إلا التعارضات، وأن اللغة "لا تتضمن أفكارا ولا أصواتا تستبق المنظومة الألسنية، بل اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة ؟ وحسب ؟ عن هذه المنظومة، وما يوجد في علاقة ما، من فكرة معينة، من مادة صوتية هو أقل أهمية مما يوجد حولها في العلامات الأخرى."[2]

فالمعنى البنيوي إذاً يتوقف على التوافقات أو الانسجامات الدلالية والسانتكسية المتداعية بنيويا فيما بين العلامات الكائنة في النظام المراد به مجموعة من العناصر المتعلق الواحد منها بالآخر، أو كلية بنيوية متعارضة مع العلاقات ذات التبعية والمتضامنة في الوقت نفسه مع العناصر التي تكوّنها.

أما علم الدلالة الحديث، فقد أضحى يفضّل المعنى البنيوي لأنه يُجْمِل ويشترط في الوقت نفسه المعنى المرجعي أي المحال إليه، مثال ذلك أن جملة مثل :

---

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 156 –155.
2. نفسه، ص. 145.

– الرجل الذي ينتقل على قدميه un homme qui se déplace sur ses pieds

يمكن أن توصف بوساطة كلمات مثل aller : (ذهب)، venir (جاء)، arriver (وصل)، ... والتي لا تأخذ بعين الاعتبار إلا اتجاه الحركة أو بأوصاف بديلة أخرى مثل marcher : (مشى)، courir (أسرع)، se presser (تعجّل)، ... والتي لا تأخذ بعين الاعتبار إلا طبيعة حركة الرجل[1]، ذلك أن الفعلين : ذهب ومشى يعيّنان نفس الواقع، ولكنهما لا يختاران السمات المرجعية نفسها في هذا الموقع، مما جعل قريماس Gremas يصرح : "اللغة الطبيعية لا تكون تعيينية Dénotative أبداً"[2] بمعنى أن الواقع المسمّى أو المرجعي يتعين من خلال تموقعه في النظام البنائي، وليس من خلال واقعة الذاتي، ومن أجل ذلك نلاحظ أن المعاني المرجعية Sens référentiels وخاصة البنيوية يمكن أن تختلف بشكل ظاهر بين لغة وأخرى، وهذه الإشارة تذكّرنا بسوء الترجمة الحرفية لنص منقول من لغة إلى لغة أخرى.

ومما استرعى انتباهي، وأنا أتابع موضوع المعنى لغوياً وبنيوياً، أني وجدت ما يتقاطع معه في تراثنا اللساني العربي بشكل ما، إذ جاء عندهم : "يسمَّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام، كرجل وفرس، وتسمّى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد نحوْ : عين الماء، وعين المال، وعين السحاب، ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو : السيف والمهنَّد والحُسام."[3]

غير أن ابن فارس يرفض هذا الطرح متقاطعا مع لسانيين معاصرين بأن الاسم في لغة لا يكون تعيينياً بصورة مطلقة : "والذي نقوله في هذا إن الاسم واحد هو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى"[4] معترضاً على من زعموا أن اختلاف ألفاظها (دوالها) يرجع إلى معنى واحد.

---

1. Dictionnaire de didactique des langues, P. 490.

2. السابق، ص. 490.
3. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما، ص. 96. أحمد بن فارس.
4. نفسه، ص. 96.

ونجد آخرين، يتقدمهم أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب 291 هـ)، يقولون: "ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناها غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال: نحو: مضى وذهب وانطلق، وقعد، وجلس، ورقد، ونام، وهجع، قالوا: ففي قعد معنى ليس في جلس، وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول"[1]، أي المعنى الموجود في الفعل مضى، أو الاسم حسام غير المعنى الموجود في الفعل انطلق أو ذهب أو الاسم سيف أو عَضْبْ.

وقال ابن فارس في موضع آخر، إن أجناس الكلام في اتفاقها وافتراقها وجوه عدة، منها اختلاف اللفظ واتفاق المعنى مثل: سيف وعضْب، وليث وأسد وهو النهج الذي اقتنع به ابن فارس بأن ما في الليث من معنى ليس في الأسد[2]، بل على مستوى دال واحد (لفظ صوتي) معانٍ متباينة:

– ضربه بالعصا
– ضرَبْتُ في الأرض: سافرت
– ضَرَبْتُ مع القوم: ساهمت معهم بسهم
– ضربْتُ على يديْه: حَجَرْتُ عليْه (مَنَعْتُهُ التَّصرُّف)
– ضربت على يديه: أفسدت عليه أمره
– "إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مثلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فوقَها"
– ضربَ على آذانهم: بعث عليهم النوم فناموا ولم يستيقظوا
–ضربْتُ عن الأمر: صرفت وجهي أو نيتي عنه
– ضربت عليه خراجاً أو ضريبة
– ضربت أجلاً: بيَّنْتُهُ
– ضرب الفحل الناقة ضِراباً
– ضرب الجرحُ ضَرَبَاناً: اشتد وجَعُهُ ولَذْعُهُ
– ضربت الخيمة: نصبْتُها
– ضربت القوس بالمِضْرَب
– ....إلخ

---

1. نفسه، ص. 96.

2. راجع المصدر السابق، ص. 201.

فهذه الأمثلة الشكلية لا تَبْعُدُ عماً نحن فيه، بل تؤكد إحدى أفكار دي سوسور بأن المعنى لا يُبْحث عنه في محتوى مرجعي خارج العلامة اللسانية بذاتها، بل داخل العلامة من خلال علاقاتها بالعلامات الأخرى في النظام، لأن معنى كلمة ليس أكثر من كونه تصوراً أو مدلولاً لا يمكن تعريفه إيجابياً بالنسبة للكلمات الأخرى الماثلة في السلسلة التي تتضمن هذه الكلمة.

اتجاهـان للمعنـى

وعندما طرح تساؤل حول اتجاهين أساسيين للمعنى، على أنه :

1. إما أن ينشأ من تفاعل العلامات اللسانية المتداعية في سلسلتها الكلامية داخل النظام أو البنية ككل،

2. وإما أن ينشأ من علاقة توجّهنا إلى عوالم لم تتجاوز نطاق اللغة.

فإن دي سوسور يستند إلى الاتجاه الأول، لأن الرجل يقوم باعتباط تلازمي بين شقّي العلامة اللسانية ضمن المنظومة التي تتضمنه، الأمر الذي يؤول بما يسمى بالمعنى أن يحصر فيما يُدْعَى بالمدلول بشكل تقريبيٍّ لا يخلو من غموض.

نعبـّر ولا نكـون

كما أن التصور الذي أضفاه دي سوسور على الكلمة مشبّها إياها بورقة ذات وجهين أحدهما الفكر، وآخرهما الصوت تصور ضبابي كثيف، لأنه منذ أنْ أُعْطِيَ هذا المثالُ السطحيٌّ صارت اللغة تُعَرَّف كأنها ليست أكثر واسطة بين الفكر والصوت، مع أن الفكر مُعَرَّف ككُومَة متصلة بطبعه، أي لا يمكن أن نعرّف شيئاً خارج طبيعته على الرغم من أن تصوراتنا المحدودة أقل إدراكاً، وبصورة دائمة، مماً نريد أن ندركه، فنحن لسنا أكثر من معبّرين عن الأشياء، ولن نكون الأشياء ذاتها، لن نكون الفكر، ولا اللغة، ولا غيرهما. فالمعنى سابق الوجود على تكوّن الفكر، وليس الفكر إلا عجيناً لا يختمر من هذه المعاني، وإذا أردنا أن نتصور كم هو مقدار فكرنا، فعلينا أن نعرف أو نتصور كم هو مقدار اكتسابنا للمعاني التي تَمْتَنِعُ من أن تُمْتَلك.

رأي جـون مدلتـون

ولعل ما أو ماإليه الناقد الإنجليزي جون مدلتون مرى، وهو يتحدث عن الاستعارة، لا ينأى نأياً كلياً عمّا نحن بصدده، إذ قال: "وأعتقد أن التساؤل عما إذا كانت الوحدة تنبع من العاطفة أم أن العاطفة تنبع من الوحدة تساؤل لا طائل من ورائه، فالعمليتان مرتبطتان ارتباط المدرك والشيء المدرك أثناء عملية الإدراك الخلاّق، ... ومهما حاولنا جاهدين، فلن نتمكن من تحاشي الصيغة المثالية، إذ أننا نحاول أن نتفهم عالم الماهيات ولغته الجوهرية عن طريق قياسه بعالم الكمّ ولغته المادية."[1]

رأي بنفنيسـت

وأما اللساني لفرنسي بنفنيست BENVENISTE الذي اختلف مع دي سوسور بشأن ما يسمى بالعبارة حيث فرّق بين المدلول والمعنى، على أن اللغة تعمل على صعيد العلامة وصعيد العبارة التي تشكّل أصغر وحدة بالنسبة للمعنى، فإنه يرى أن معايير إعادة البناء الشكلي من الممكن أن تكون صحيحة مادامت تنجم عن قواعد مضبوطة، حيث لا نستطيع أن نبعد منها شيئاً إلا إذا قدّر ذاته بأنه قادر على أن يستبدل بناءه بقواعد أخرى أكثر دقة، وأما الجهاز الصوتي والمورفولوجي، فلا يتدخّلان إلاّ لدعْم أو دحض هذه المحاولات "لكن، فيما يتعلق بالمعنى، ليس لنا دليلٌ غيْرَ احتمالٍ قائم على الفطرة السليمة le bon sens، وعلى التثمينات الشخصية للساني"[2]، مردفاً القول: "إنّ معنىً شكل لساني يحدّد نفسه بوساطة كلية استعمالاته، وبتوزيعه، ومن قبل قوالب الارتباطات التي تنجم عن ذلك، وبحضور مورفيمات مماثلة مزوّدة بمعاني مختلفة يجعلنا نتسائل فيما إذا كان يوجد استعمال واحد حيث معنيان يغطّيان وحدتهما، والإجابة على هذا لا تعطى أبداً مقدّمة، ولا يمكن أن تعطى إلا بدراسة نبيهة لمجموعة من السياقات حيث الشكل قابل للظهور، إذ ليس لنا الحق أن نفترض، إيجابياً أو سلباً، باسم شبه حقيقة vraisemblance."[3]

---

1. مجلة "المجلة"، ص: 48 عدد: 172 ابرلي 1971 الهيئة المصرية العامة.

2. Problèmes de linguistique générale, P. 289 Benveniste.

3. نفسه، ص. 290.

وليس صعباً أن يستشف المطلع اللساني على المذاهب والآراء اللسانية ما تبناه، ولو بشكل غير مباشر، من أفكار لسانية دي سوسورية وبلومفيدلية، ولكنه يميز في مستويات التحليل اللساني بين ثلاث محطات :[1]

الوحدات الصوتية Phonèmes

الوحدات الدالة Monèmes

العبارة Phrase أو Syntagme أو Enoncé

وهو يرى أن العبارة "وحدة لسانية متميزة بخصائص فريدة، فهي تستوعب الإشارات، وإن لم تكن إشارة بحد ذاتها، ولا يصحّ تعريفها إلا بوصفها محمولاً، وبذلك تختلف اختلافا بيّناً عن سائر الوحدات اللسانية، فهي ترقى إلى الحدّ الأقصى في تحليل المستويات"[1] أي من اصغر وحدة صوتيّة إلى أصغر وحدة دالّة فالعبارة، فالمستويان الأول والثاني المسمّيانِ عند أندري مارتيني التمفصل المزدوج double articulation بإمكان عدّهما وحصرهما خلافاً للعبارة التي يتعذر حصرها، وبالمثل يمكن دراسة المستويين الأولين من حيث توزيعهما على عكس العبارات التي لا توزيع لها، لأن العبارة عنده تمثل أعلى مستوى في تحليل منظومة العلامات اللسانية، وإذا ما تجاوزنا المستوى الثالث (العبارة)، فإننا سندخل مجالاً آخر هو مجال المقالة، بينما العبارة لا تشكل إلاّ وحدة لسانية لها، لكن بخصائص متميزة.

وحيث إن بنفنيست يفرق بين المدلول والمعنى، وأن العبارة تكوّن الوحدة الصغرى له، فإنه يرفض أن يطرح مسألة المعنى على مستوى العلامة بل على مستوى العبارة "وعلى هذا الصعيد فقط، يتاح لمنظومة الإشارات التي تكون مقدّرة فحسب أن تفيد معنى من المعاني، ويتولّد هذا

---

1. من الاضطرابات التي تعيشها اللسانيات العربية الآنية مصطلحاتها، فلو عدت إلى معجم لساني واحد لمؤلف واحد لوجدت فيه (معجم اللسانية لصاحبه الدكتور بسام بركة) :

- العبارة ← Enonce
- عبارة ← expressio n
- عبارة ← locution
- عبارة ← niveau

المعنى من علاقة إحالة إلى العالم الواقع خارج اللغة، باعتبار العلامة مقطعاً محمولياً يفيد أمراً في شيء"[1]، وهذا الاتجاه على هذا النحو لبنفنيست لا يهدف إطلاقا إلى أن نختار تعريفين للمعنى، بل كل ما في الأمر أنه يدعونا إلى التمييز بين وظيفتين متكاملتين، غير أن رونالد إيلوار يرى "أن قضية المعنى تستوجب رداً يتضمن عملاً تركيبياً مماثلاً، كما أن إنشاء المعنى واستقراره يستندان إلى المعايير ذاتها"[2] مستشهداً بأحد أقوال روبيرليون فاغنر : "ينشأ المعنى، عن طريق التفسير، بدءاً من المعطيات الموضوعية التي توفرها الظروف والملابسات، وانطلاقا من المعطيات اللسانية المتوفرة التي تدرج فيها الإشارة الجديدة"[3] ويعطي فاغنر مثالاً عن نشوء المعنى انطلاقا من الملابسات التي تحيط بالعلامة المدرجة في التواصل والخطاب مبيّناً أن الوحدة المفترضة "أنْتَ" المنتمية إلى علامات أخرى (الضمائر المنفصلة هنُا) يتحدد معناها السياقي من الجملة التي تتضمنها بناء على موقف محدّد مماّ يراد من التبليغ بهذا الضمير المنفصل حتى لو رُسِم وحده دون علامة أخرى سبقته أو تلحق به :

– أنْتَ ؟← يحتمل مقاصد شتّى

– أنْتَ ← تعَجُّب قد يحتمل أكثر من مقْصِد

وتتخذ الوحدة المقدرة كعلامة مدرجة انطلاقا من ظروف وملابسات كالاستفهام، والتعجب، والنفي، والإثبات، والإنكار، ... معانٍ أخرى شتّى.

– ما أجملَ زيداًص! ←"ما" تعجبّية

– ما أجمل زَيْدٌ ← "ما نافية

– ما أجملُ زَيْدٍ ؟←"ما" الاستفهامية

– هذا غلاماً أَحْسَنُ منه رجلاً ← يُرادُ به الحالُ في شخص واحدٍ

– هذا غلام أحْسَنُ منه رَجُلٌ ← لا يراد الحال في شخص واحد، لأنهما شخصان

1. مدخل إلى اللسانيات، ص 132 – 131 رونالد إيلوار "ترجمة : د. بدر الدين القاسم.

2. نفسه، ص. 189.

3. نفسه، ص. 189.

– كم كتاب طالعتَ! ← "كم" خبرية تكثيرية

– كم كتاباً طالعْتَ؟ ← "كم" استخبارية

– ....إلخ

التوازن الآلي بين اللغة والمتكلم الطبيعي

وإذا كان النظام اللغوي الخاص بكل فصيلة لغوية هو الذي تُمَيَّز به المعاني ويُوقَفُ به على غرض البلاغ بين المتكلم والمتلقي، فلا ندري وفي مثل جمل مثل هذه، ما الذي يقود الآخر إلى غرض البلاغ؟ ما هو لساني (قاعدي عامّ محدّد) أم ما هو غير لساني يخضع إلى تحقيقات وأداءات صوتية ونغمية من تصرف الناطق وحسّ المتلقّي؟ ولكنا لا نذهب إلى القول إنّ ما في تناول اللغة أكثر فسحةً وتصرّفاً وحريّة مماً في تناولُ متكلم بها، وكل ما نستطيع قوله إن هناك توازناً آلياً بينهما، فاللغة آلة، والمتكلم بها قائدها، ولكنه لا يستطيع أن يتصرف خارج نطاقها وطاقتها، وما قواعدها وعناصرها مجتمعةً إلاّ أليافها وأجزاء غياراتها، من ذلك:

– أن المتكلم س يقول:

1. هُنَّ حَواجٌ بيتَ اللهِ ← إذا أرَدْنَ الحَجَّ

2. هذا ظالمٌ أخاكَ ← إذا لم يصدر منه ظلْمٌ بعْدُ

3. جاء الشتّاءُ والوَقُودَ ← يراد بنصب الوَقود الحاجةُ إليه

وأن المتكلم سَ يقول:

1. هُنَّ حَواجٌ بيتِ اللهِ ← إذا كان قد حججن فعلاً

2. هذا ظالمُ أخيكَ ← إذا صَدَرَ منه ظلم فعلاً

3. جاء الشتّاءُ والوَقُودُ ← يراد برفع الوقود مَجيئُهُمَا

الرؤية العربية والتواصل

وكل لغة وخصائصها في تبليغ المعاني عن نفسها، ومن الهذر أن نفاضل بين لغةَ وأخرى إلا بما تمّ إنجازه بها من رجالاتها والناطقين بها

وكان علماء اللغة العرب على مسافة قريبة من التوفيق حين عرّفوا المعنى بأنه القَصْد، وهذه الرؤية تتوافق مع آراء أبرز اللسانيين والسيميولوجيين الغربيين المحدثين الذين يرى فريق منهم (بريطو، جورج مونان، بويصنص) أن وظيفة اللغة الأساس هي التبليغ غير أن هذا التواصل مشروط بالقصدية وإرادة المتكلم في التأثير على الغير، إذ لا يمكن للدليل أن يكون أداة التواصلية القصدية ما لم تشترط القصدية التواصلية الواعية، وبناء على ذلك انحصر موضوع السيميولوجيا في الدلائل القائمة على الاعتباطية، أي العلامات، ... ويعني ذلك أن تحديد معنى تعبير رهين بتعيين مقاصد المتكلمين والكشف عنها"[1] حتى وإن كان لأنصار سيمولوجيا الدلالة (يتقدمهم رونالد بارت) رأي آخر، بدعوى أن اللغة التي نتواصل بها لا تستنفد كل إمكانات التواصل، سواء توفرت القصدية أم لم تتوفر، أي الرؤية العربية للمعنى، أقرب إلى أنصار سيميولوجيا التواصل الذين يرون في العلامة المتضمنة معنى الدال والمدلول والقصد منها إلى أنصار سيميولوجيا الدلالة الذين لا يرون في العلامة ذاتها إلاّ الدال والمدلول.

كارناب والمعنـى : مقارنة وتحليل

وإذا ما تأملنا النص التالي لكارناب الذين يحدد فيه أبعاداً ثلاثية، لما وجدنا أنفسنا بعيدين عن المفهوم العربي القديم لإنشاء المعنى أو إنتاجه : "إذا أحلنا، في بحث ما، على الذات المتكلمة بشكل ظاهر أو أحلنا، على العموم، على المستعمل للسان، فإن هذا البحث ينتسب إلى ميدان التداولية،[2] ... وإذا ما غضضنا الطرف عن مُستعمِل اللسان محلّلين التعابير وما تعيّنه لا غير، فإن الحقل الذي نحن فيه هو حقل علم الدلالة، وإذا ما غضضنا الطرف أخيرا عن المعيَّنات محلّلين العلاقات بين التعابير لا غير، فإن الحقل الذي نحن فيه هو حقل التركيب (المنطقي)."[3]

---

1. الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ص. 6 (المقدمة) مارسيلو داسكال.
2. ورود مصطلح "تداولية" لدى كارناب من حين لآخر يراد منه كل بحث لساني معطى تاريخيا، أي اللسانيات الطبيعية.
3. المرجع نفسه، ص. 23.

إن نص كارناب السابق يشير إلى أن المعنى سواء كان قصدياً أم غير ذلك، فإنه يتضمن ثلاثة مستويات :

2.المستوى التداولي، وتفيدنا المعاجم اللسانية المختصة أن مفهوم التداولية Pragmatique لا يعني إلا ما تتميز به اللغة من خلال استعمالها تبعاً لدوافع أو تَسْبيبات نفسية للمتكلمين les locuteurs باللغة الأم، وردود أفعال المحادثين Les interlocuteurs علاوة على القوالب المُجْتَمَعَة للخطاب Types socialisés de discours وموضوعه، مثال ذلك أن الفعل العَربي (علا) من العلوّ (خِلاَفُ السُّفْل)، ومنه اشتق الخماسي "تعالى يتعالى تعالياً)، وتذكر المعاجم العربية أن الرجل العالي كان ينادي السافل، فيقول له : تَعَالَ، أي ارْتَفِعْ ولما كَثُر في خطابهم استُعْمِل بمعنى هلُمَّ" مطلقا أي أقبلْ سواء كان موضع الشخص المدعوّ أعلى أو أَسفل أو بين ذلك، وبذلك يكون الفعل (علا) انتقل من معناه الخاص إلى معنى عام، وإذا ما اتصلت به الضمائر يبقى مفتوح اللام، وهذا هو القياس الشائع في تصريفه، غير أنها (اللاّم) قد تُضَمّ مع جمع المذكر السالم، وتُكْسَر مع المؤنثة، وبلغة الضم قرأ الحسن البصري في قوله تعالى : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالُوا"، وذلك بالتعارض مع المظاهر السانتكسية (ذات الأولوية الشَكليَة للتراكيب أو الصيغ اللسانية) والدلالية (العلاقة بين الجواهر أو الكينات اللغوية entre les entités linguistiques والعالم).

2. المستوى الدلالي الذي يُجْتَزَأُ فيه بتحليل العبارة وفق ما تعيّنه لا غير، أي لا يحال فيه على الذات المتكلمة بل على ذاتية الدلالة autonyme المركزية في حدود ما يسمح به مجال علم الدلالة، ففي العربية صيغ كثيرة ذاتية الدلالة مثل "تفاعل" :

تدل على مشاركة اثنين فصاعدا تضاربا، وفي داخلها دلالات أخرى حسب السياق، إذا ما رُكّبت في سلسلة خطية كلامية :

أ) تضاربا

ب) تضاربا موعداً

ج) تجاذبنا أطراف الحديث

د) تجاذبنا الرداء، الحبل،...

هـ) لإظهار الفاعل حصول أصله له مع أنه غير حاصل له : تجاهل، تغافل، تمارض،...

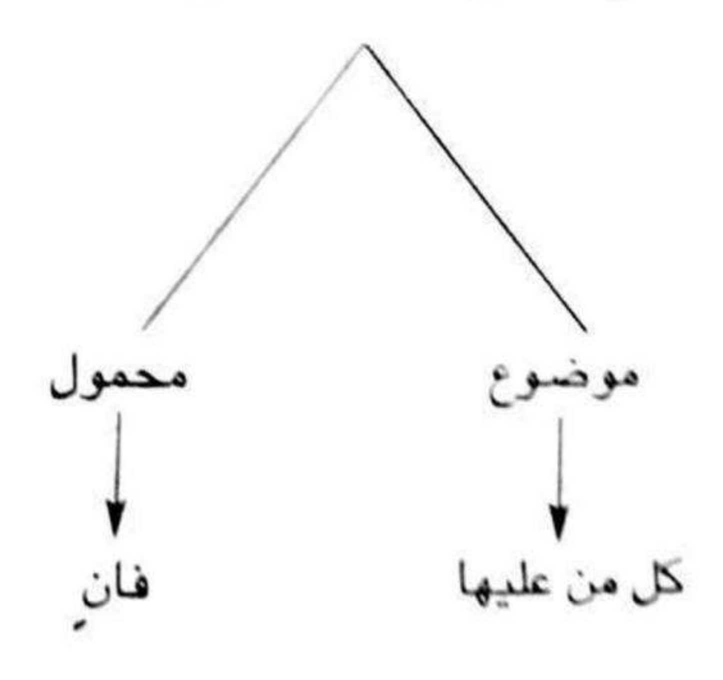
و) بمعنى المجرد : توانيْت، أي ضَعُفْتُ وقصرْتُ من (ونَي)

ز) بمعنى المطاوعة (فاعل). والمطاوعة "كون الفعل دالاً على معنى حمل من تعلّق فعل آخر متعدٍّ بفاعله نحو : باعدته فتباعد. وعرض عبد القاهر (471 هـ) معنى المطاوعة أنه قبل الفعل ولم يمتنِع".[1]

وهناك "تفعلّ" لمطاوعة "فعلّ" كقول الشاعر :

تحلّمْ عن الأدنيْن واستبْق ودّهمْ ولن تستطيــع الحلـم حتى تَحلّما

مستوى ما يسمى بالتركيب المنطقي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار المستويين السابقين، لأنه يعتمد على التحليل العلائقي بين التراكيب، وإذا كنا لا نستبعد التحليل المحيل على عناصره المتداعي بعضُها في بعض، فإننا لا نستبعد أن أساس كل لغة منطق في مجازها وحقيقتها سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، لأنه لا يمكن للسانيٍّ يوماً أن يلُمّ بكل البنى اللغوية بما في ذلك لغته الطبيعية، بل لا نحسب أن يبْتكر جهاز آلي ذات يوم ليتلفظ لغة بالضغط على زرّه في تلفظ واحد، بل لا يمكن لتواصل لغوي أن يتم خارج القياس l'analogie والاستقراء l'induction والاستنباط déduction :



أي $\frac{\text{س كائن (موضوع)}}{\text{س فانٍ (محمول)}} = \frac{\text{مسند إليه}}{\text{مسند}} = \frac{\text{مبتدأ}}{\text{خبر}} = \frac{\text{مرفوع}}{\text{مرفوع}} =$ (دلالة الثبوت)

ومما نراه أن المجال هنا لا يسمح بالمزيد من توسيع الشق في هذا المستوى الثالث المشار إليه آنفاً، وإلا دخلنا في دَجَل التجريبية Empirisme وجدل العقلانية Mentalisme لنجد أنفسنا، وقد انحرفنا عن الموضوع، وكل ما يمكن التأكيد عليه أن هناك قاسماً مشتركاً بين كل اللغات الإنسانية الحضارية، وما تتميز به لغتنا غير ما يتميز به محيطها من حولنا، وإلا لَمَا أُتيحَ لهذه اللغات أن تعكس العالم المحيط بنا على نحو متباين "بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميزة، وهذه كلها حقائق أكدها علم اللغة ولا سبيل إلى دحضها"[1]، بل لم يؤكد علم اللغة إلا ما جاء به القرآن الكريم: "ومِنْ آياتهِ خَلْقُ السماواتِ والأرْضِ، واختلافُ ألْسِنَتِكُمْ وألوانِكم."

وما يتفق عليه اللسانيون أن عدد المونيمات (أصغر الوحدات الدالة)[2] محدود خلافاً للملفوظات "عدد الملفوظات الممكن في كل لغة غير نهائي نظرياً، لأنه لا يوجد له حدّ بعدد المونيمات المتتابعة التي يمكن لملفوظ أن يتضمنها.

وإذا كانت لائحة المونيمات لكل لغة مفتوحة، فإنه من غير الممكن أن نحدّد بدقة ما تقدمه لغة من مونيمات متميزة بسبب أن حاجيات جديدة تظهر لدى كل مجموعة في كل لحظة، مما ينجم عن هذه الاحتياجات ولادة تسميات جديدة."[3]

البراغماتية (التداولية) والتعبير

ودون التعرض إلى براغماتية ردولف كارناب Rudolf Carnap وبراغماتيين آخرين أمثال شارل موريس و Hans Reichenbach وغيرهما،

---

1. الأصوات والإشارات، ص. 65 كندراتوف ترجمة شوقي جلال.
2. الكلمات بالمفهوم التقليدي.
3. Eléments de linguistique générale, P. 19 André Martinet.

لأن هذا موضوع آخر، فإن من أهدافها المتصلة بعملنا هنا أنها تشير إلى إجراء أو طريقة بحث تستعمل من أجل تأسيس التصورات الدلالية تجريبيا بتوسّع وقصدْ "إن دَوْرُ البراغماتية Pragmatique يكمن في تزويد اللغة بعامة واللغات الطبيعية بخاصة بقاعدة اختبارية، وتقديم عدد من الظواهر التي تبرز بغتة لدى المترجمين الحقيقيين.

ففي الحالة الأولى تطالب revendique البراغماتية بدور تفسيري إجمالي لمجموع نشاط مترجمين، وفي الحالة الثانية تصوّب دورها لضمان رباط بين التصورات النظرية وحقيقة الممارسة اللسانية، ويتم هذا دائما في منظور تفسيري"[1]، وهذا ما صرّح به تقريباً كارناب، وهو يحدّد حقول السانتكس وعلم الدلالة، والبراغماتية : "خلال عملية تطبيقية للغة، نميز بين ثلاثة عوامل رئيسية : المتكلم le locuteur، التعبير المستعمل، مدلول هذا التعبير Désignatum de cette expression ، أي ما الذي يجعل المتكلّم يلمّح إلى إحالة بواسطة هذا التعبير ؟ فالبحث القائم على ما تحمله اللغة ينتمي إلى البراغماتية، وإذا ما أحلنا ضمنيا إلى المتكلم، فالبحث ينتمي إلى علم الدلالة، وإذا ما قمنا بإحالة إلى Designata وليس إلى المتكلم، فإن البحث ينتمي إلى السانتكس"[2] ذاهباً إلى أنه بين الكثير من التصورات التي نستعملها في وقتنا الراهن في الحقل الدلالي الصرّف، والتي لُقّنَتْ لنا من قبل التصورات البراغماتية والمستعملة من قبل فلاسفة ولسانيين تتوافق مع اللغات الطبيعية، دون القول مع ذلك بأن استعمالها كان قد ضبط ضبطاً بوساطة تعريفات دقيقة.[3]

ما نتفق عليه مع البراغماتييـن

وما نتفق عليه مع البراغماتيين أن العلامات اللسانية تدرس في ضوء ثلاثة أبعاد بحيث يُعالج :[4]

1. La pragmatique, P. 90.

2. نفسه، ص. 90.

3. المرجع السابق، ص. 100.

4. Initiation à la linguistique, P. 164.

1. السانتكس العلاقات بين العلامات في الملفوظ المركّب L'enconcé complex،

2. علم الدلالة العلاقات بين العلامات والواقع،

3. البراغماتية العلاقات بين العلامات ومُستَعْمِلِيهاَ.

علماً بأن مفهوم علم الدلالة والبراغماتية لدى شارل موريس منظور إليه كأنه يأخذ على عهدته حقلين متمايزين جداً، حتى وإن صار يُنْظَرَ إلى الحقل الدلالي في مرحلة لاحقة، وإلى حدّ ما، الحقل الذي يقتصر على دراسة المعنى الوصفي.

المعنـى لـدى مارتنـي

أما المعنى بالنسبة لأندري مارتني، فإنه عبارة عن وضع التصور le concept ووحدة مستوى التلفظ الأول première articulation في علاقة، في حين أن النسقية la glossématique تفترض تنظيماً للمعنى مطابقاً للشكل الصوتي، أي يتمظهر المعنى بالنسبة لأندري مارتني على مستوى التلفظ الأول، أما الفونيمات فليست أكثر من ضمانات Garants لاعتباطية العلامة.[1]

وأشار مارتني إلى أن بعض اللسانيين يستقر لديهم كمثل أعلى أن نضبط منهج وصف لا يتيح للمعنى أن يتدخل في وحدات ذات معاني، أي أن يدرس المعنى مستقلا عن اي وحدة دالة، لأن هذه الطريقة، في اعتقادهم، تجعل اللسانيات أكثر صرامة، وتمكّنها من حذف أو إلغاء حقل بحجة أن التجارب أظهرت أنه من الصعب ضبط الوقائع ضاربا مثالاً على الفرنسية قائلاً لنفرض أن الفرنسية لم تعرف إلا بوساطة مدوّنة واسعة جُمعَت من مناطق مرِنةً Bandes sonores، والتي تفترضها كإنجاز لتحليلها إلى فونيمات، ما من شك في أن الواصف سيعيّن سريعاً بعض المقاطع التي نجدها في سياقات مختلفة مثال ذلك / KAJE / (cahier، دفتر) في السياقات un cahier vert (دفتر أخضر) وles cahiers jaunes (الدفاتر الصفراء)، وما أن يتم إنجاز تحليل نص إلى مونيمات متتابعة على هذه

الأسس حتى نرتّب مجموع ما يظهر في السياقات ذاتها، سيكون مثلاً مرتبة المونيمات التي غالباً ما تكون متبوعة بـ :

/é/, /Ré/, /Ro/ إلخ. أي RAS, - Rai, aient, ait, ais : إلخ...)[1]

إن إمكان عزل المونيمات السابقة سواء كانت لواحق أم سوابق، وحتى أكساعاً كما في العربية (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) فإن أي تحليل يفضي بنا إلى تحليل كامل للغة، لأن أي لساني لا يتخيل أن يحلل أو يصف لغة لا يفهمها. إذ عندما نعلم أن aier في (Le grand cahier الدفتر الكبير) يشير إلى عدة أشياء، وأن cahier في le lait caillé الحليب المرَوَّب) يدل على حالة خاصة لبعض السوائل، فإنه من العبث أن يُضيع اللساني وقته لأن يبحث فيما إذا كان / Lé / (lait) ليس هنا وحدة منتمية إلى المرتبة نفسها مثل / Grà / (grand) أي نعت، الأمر الذي يجعلنا نتحقق من /KAJE/ (دفتر) في السياقين، ولذا فإن مارتني لا ينصح بمنهج ينظر نظرة كلية لتجريد المعنى من وحدات ذات معاني unités significatives ، لكنه يدعونا إلى أن نكون محترزين من الخطر الذي نتعرض له عندما نتناول الحقل الدلالي، ونحن في غفلة من أمرنا من أي احتياط.

ومما يراه أندري مارتني أنه لا يوجد إطلاقاً معنى في اللسانيات لا يتضمنه شكليا مرسلة Message صوتية "ويمكن أن يُعْترض علينا بحالات المشترك اللفظي، غير أن مقطعا segment مثل Cousin / Kuzé/ (ابن عمّ) ليس له معنى في ذاته خارج سياقات مشكلة تشكيلات مختلفة :

- Mon cousin Charles m'écrit ابن عمي شارل كتب لي.

- Les cousins ne résistent pas fly-tox (أبناء العم لا يحتملون فليتوكس).

والتي تنشئ قيمتها إمّا كنوع قرابة، وإما كحشرة"[1] منتهياً إلى أنّ عنصراً لسانياً لا يكون له معنى حقيقي إلا في سياق ووضع معين للخطاب، لأنه مونيمة (أصغر وحدة دالة) أو علامة أكثر تعقيدا لا تنطوي إلا على افتراضات دلالية "إذا أخذنا la maison (الدار) كمثال في كلام محدّد :

- Madame n'est pas à la maison (لا توجد السيدة في الدار)،

- Il représente une maison de commerce (يمثّل داراً (أو غرفة) للتجارة،

- Il lutte contre la maison d'autriche (قاوم ضد دار النمسا).

فإن السياق يُظهِر في كل حالة بعضاً من الاحتمالات Virtualités وينبذ الأخرى في الظل، ومن جهة أخرى، ليس هناك أي وحدة نحوية أو معجمية يمكن عَزْوُها إلى لغة إذا كانت لا تقابل الوحدات الصوتية المختلفة التي تميزّها وتتعارض بها مع أنواع أخرى من نفس النمط، لا يمكن أن نتكلم مثلاً عن صيغة الفعل الإلتزامي subjonctif في لغة لا تستخدم أشكالا لصيغ الفعل الإلتزامي متميزة عن أشكال إخبارية je sache متميزة عن (je sais أعلم).[1]

المعنى والنحو التوليدي

ومما ورد في بعض المعاجم اللسانية[2] أن مسألة المعنى، وخاصة في النحو الوصفي grammaire descriptive، وأياً كانت المواقف المتخذة من اللسانيين، فقد كثيرا من دَرَابته في اللسانيات التوليدية، وكأن ثمت اتفاقاً ضمنياً بين الدارسين لتحويله إلى النظرية الدلالية حيث يوجد فيها تمييز ظاهري بين كلمات sens (معنى) وsignification (دلالة)، وvaleur(قيمة) وهذه الأخيرة تُحَدَّد بموقع وحدة لغوية أياً كانت في النظام اللساني الممارس كبنية كلية، ولكن هذا التمييز يفقد فائدته، ومن ثم فإن النظرية اللسانية يجب أن تسمح بالإفضاء إلى تأويل دلالي لكل ملفوظ نحوي مولّد بانتظام بعيداً عن أي تساؤل مثل :

– ما هو معنى هذه الوحدة أو هذا التركيب ؟ أو في أي شيء يكْمُن معنى هذه الوحدة أو هذا التركيب ؟

وقريب من الاتجاه السابق أن لسانيين يرون أن من واجب النحو التوليدي أن ينتج ملفوظات صحيحة دلالياً، ويعنون بذلك أن هذا النحو

---

1. نفسه، ص. 36.

2. انظر مثلاً : Dictionnaire de linguistique, P. 437 Jean Dubois.

يجب أن يسمح بتوضيح التأويل الدلالي لكل ملفوظ يتعلق باللغة المعنية مستخلصين نتائج مفادها :

1. أن معنى جملتين يتباين تبعاً لتباين تمثيلاتهما البنيوية السانتغمية (التركيبية) :

اتصلت بكتاب من عنده } = الكتاب الذي كتبه أو ألّفه
= الكتاب الذي بعث به إليّ

2. أن النحو التوليدي يجب أن يكون مسؤولا على تمييز الجمل النحوية من الجمل التي لها معنى.

فالجملة المشهورة "الأفكار الخضراء تنام بعنف" نحوية، لكنها غير دلالية، بينما جملة فرنسية مثل Mois vouloir manger : (أنا أراد أكل).

دلالية في الفرنسية، ولكنها ليست كذلك في العربية، لكون الجملة أو الملفوظ خارج النظام السانتكسي السطحي بين اللغتين ولكنها غير نحوية، لو قلنا mois, je veux manger : (أنا أريد أن آكل) لكانت نحوية ودلالية معاً، وفي اللغتين.

ولعلّه لا يخفى على المتلقي المتمعن في اللسانيات الشومسكية أن ما ورد في الفقرة السابقة أن هذا الاتجاه في تعيين الجمل المعنوية من غير المعنوية يأخذ بكامل الاعتبار الكفاءة compétence والانجاز أو الأداء la performance في لغة ينتمي إليها المتكلم طبيعياً لا اصطناعيا، لأن الكفاءة اللغوية الواجب استدعاؤها في ذهن هذا المتكلم بالنسبة للنحو التوليدي في لغته المنطوقة، ليست إلا مجموع الإمكانات التي اكتسبها، والتي يتحكم فيها بقوة اللاوعي، مما يمكنه من إنشاء ومعرفة العدد اللانهائي لجمل صحيحة نحوياً، وتفسير ما يشير منها إلى معاني، وما لا يشير إلى ذلك، وبصورة غير نهائية أيضاً وهذا يدل على أن المعاني غير منتهية، وأشار القرآن الكريم إلى ما قد يشبه ما نحن بصدده. "قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ،لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً".

ولا يصعب على المتكلم أن يشعر بما هو غامض مما هو واضح في جمل تختلف صوتياً، ولكنها قد تتشابه في بنائها النحوي، بينما قد يختلف بعضها الآخر اختلافا متباينا، وفي الحالتين يجب أن تتضمن الجمل المنطوق بها معاني مختلفة، وربما هذا ما أوحى إلى قطرب القائل بعدم دلالة الحركات الإعرابية عن معانيها، الذي لاحظ في كلام العرب المتداول أسماء متفقة في إعرابها مختلفة في معانيها، كالحروف المشبهة بالفعل، والنواسخ التي تجعل جملاً لا حصر لها تتفق في إعرابها، ولكن شتان بين :

– إن القطار قادم وليت القطار قادم أو "ليس الولد مهذبا وصار الولد مهذباً" في حين أن هناك أسماء أخرى مختلفة الإعراب متفقة المعاني "ما عليَّ قائم، وما عليٌّ بقائم، ما رأيته منذ يومين و منذ يومان، ولا مالَ عندك، ولا مالٌ عندك، ما في الدار أحدٌ إلا عليّ، وما في الدار أحد إلا علياً" أو كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله﴾ و﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لله﴾ حيث قرأ قارئان (أبو عمرو ويعقوب) برفع "كله" على الابتداء، بينما قرأ الخمسة الباقون بنصب "كله" على اللغة الشاسعة أي التوكيد.[1]

ولعلّ متسائلاً يعرض له أن يتساءل : ما هي اللغة التي قصدها شومسكي ؟ وهل هذا يتماشى مع تعدّدية التواصل اللغوي كشأن الفصحى والعامية في العربية ؟ يبدو أن الزجاجي كان واضحاً، وهو يجيب : "فأما من تكلم من العامة بالعربية بغير إعراب، فيُفْهَم عنه، فإنما ذلك في المتعارف المشهور والمستعمل المألوف بالدراية، ولو التجأ أحدهم إلى الإيضاح عن معنى ملتبس بغيره، من غير فهمه بالإعراب، لم يمكنه ذلك."[2]

وليس الإعراب ضروريا لكل اللغات، وإلا كانت اللغات كلها معربة، وإلا لما فهمنا معنى بدون إعراب، بل اللغات المتصرفة les langues flexionnelles (أو المعربة)ص ظواهر لغوية نادرة بين ألوف اللغات، ولكن العادات التواصلية السوسيولسانية والنفسية والثوابت الثقافية تلعب دوراً لا

---

1. أنظر الإيضاح في علل النحو، ص. 70 الزجاجي.
2. نفسه، ص. 96.

يستهان به في تبليغ المعاني المتبادلة، وخاصة في اللغات الطبيعية التي لم تُزِلْها بعد غريمتها المسماة عادة رسمية أو أدبية...

ليست "المعاني مطروحة في الطريق" بتعبير الجاحظ، ولكنها تداعيات دلالية قائمة في النفوس التي يمتلك أصحابها ملكتها اللسانية العامة والخاصة، وإلا فماذا عسى غير فرنسي أن يفهم من جملة :

Par l'opération du Saint-Esprit -

إذا لم يكن طبيعيا في هذه اللغة أو مطلعاً على تعابيرها الشفهية الشاسعة[1]؟ وماذا عسى غير عربي أصيل أن يفهم ما يشير إليه مثل عربي قديم مثل : "علُقَتْ معَالِقَها، وصَرَّ الجُنْدُبُ"[2] ؟ ولكن ما صلة كل هذا بـ :

– علِق العامل يعمل، إذا طفِقَ (شرع)،

– علِقَت المرأة، إذا حبِلَتْ حبَلاً،

– علِقَت الظباء أو الدابة العِضَاةَ[3]، إذا تناولتها من أعلاها،

– علِقَت الدابة، إذا شربت ماء من عينٍ أوْ وادٍ فَعَلِقَتْ بها العلَقَةُ،

– علقَ شخص بآخر، إذا تعلق به (أحبَّه)، ... إلخ ؟.

ولك أن تستحضر القصائد الشعرية الجاهلية المسماة في تاريخ الأدب العربي "معلَّقات"، تشبيها لها بامرأة معلَّقة لا متزوجة ولا مطلَّقة، وذلك بعد تعليقها على أستار الكعبة، فيما يُرْوَى، ومن البعيد أن تكون من "العِلْقِ" الدال على ما هو نفيس من كل شيء، كما قرأت لبعض المستشرقين.

وإذا قرأنا آية كريمة "إن الصلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتاباً موْقُوتاً" مثل "إن الصلاه كانتْ على المؤمنينْ كتابْ موْقُوتْ" بتسكين أواخر كلماتها، فهل كنا نعدم فهم معناها ؟، وكثيراً ما استوقفني قول ثعلب (291هـ)، وهو يمدح الفراء (207 هـ)، ويغْمِزُ بسيبويه (180 هـ) : "العرب تخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني، ولا يُفْسِدِ الإعرابُ المعنى، فإذا كان الإعراب يفسد

---

1. تعبير شاسع يدل على الازدراء، ومن معناه أيضا "الروح القدُس."
2. أي جاء الحرّ، ولا يمكنني الرحيل، والقصة الكاملة في الصحاح (1529 / 4).
3. شجر ذو شوك كالطلح والعوسج.

المعنى، فليس من كلام العرب، وإنما صحّ قول الفراء لأنه عمل العربية والنحو على كلام العرب : فقال : كل مسألة وافق إعرابها معناها، ومعناها إعرابها فهو الصحيح، وإنما لَحِقَ سيبويهْ الغلطُ لأنه عمل كلام العرب على المعاني، وخلّى عن الألفاظ، ولم يُوجَدْ في كلام العرب، ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مُطبّقٌ للإعراب، والإعراب مُطَبِّقٌ للمعنى"[1]،وإذا كان سيبويه عمل العربية على المعاني وترك الألفاظ، فإن الفراء "حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع، واستحقّ التَّقْدمَةَ، وذلك كقولك : "مات زيد"، فلو عاملْتَ المعنى لوجب أن تقول : "مات زَيداً" لأن الله هو الذي أماته، ولكنك عاملت اللفظ، فأرَدْتَ : سكَنَتْ حركاتُ زَيدْ."[2]

ومع عدم تسويغنا اتهام ثعلب سيبويه بدعوى أنه عمل العربية أو حملها على المعاني وأهمل الألفاظ، فإننا نتفق معه بأن الإعراب لا يفسد المعنى في اللغات المتصرفة، ولكنه عالة عليها، ويبقى أن نقبل قبولاً راسخاً بأن السلوكات اللغوية خلال عملية التبليغ لا تقل شأناً عن الصوائت القصيرة أو الطويلة المشار بها إلى معاني الكلمات والجمل بوساطة الإعراب، من ذلك مثلاً أن جارية غنَّتْ للواثق (232هـ) يوماً :

أظلَيْمُ إنَّ مُصَابكُمْ رَجُلاً   أهدى السلامَ إليكُم ظلْمُ

فقال لها : قولي "رجل" ذاهباً إلى أنه خبر "إنّ"، فقالت : لا أقول إلا كما علمت، وسانده في ذلك وزيره الفتح بن خاقان (247هـ)، لكن الجارية أبت إلا النصب، مما جعل الخليفة يستدعي أبا عثمان المازني (236هـ)، الذي وضّح له أن خبر "إنّ" الحرف الذي في آخر البيت (ظلْمُ) قائلاً : "يا أمير المؤمنين، أما ترى البيت كأنه معلّق لا معنى له حتى يتمَّ بهذا الحرف ؟ وإذا قال : "أظلَيْمُ إنّ مُصَابكمْ رجلاً أهدى السلام إليكم"، فكأنه ما قال شيئا حتى يقول : "ظلْمُ."[3]

ليس الإعـراب فقط

وكما يلاحظ في المثال السابق أن الإشكال لا يكمن في الإعراب بقدر ما يرتبط بتَتْمِمَةَ واجب الخطاب أو الكلام، فالمتكلم يتكلم أفقيا وفق

---

1. طبقات النحويين واللغويين، ص. 131 الزبيدي.
2. نفسه، ص. 131.
3. طبقات النحويين واللغويين، ص. 91 – 92.

وحدات لغوية خطية متعاقبة لتبليغ رسالته التي لا تستغني عما يربط العناصر بعضها ببعض أفقياً، ولو ذهبنا مذهب الواثق ووزيره لانتقلنا من خطاب أفقي إلى خطاب عمودي قبل أوان نهاية البلاغ أو الخطاب.

ثم إننا لو قرأنا أبياتا شعرية (ولتكن للأعشى) :

تقول ابنتي حين جد الرحيلُ ... أرانا سواءً ومَن قَدْيَتِمْ

أبانا فلا رِمْتَ مِنْ عِنْدِنا ... فإناً بخيرٍ، إذا لم تَرِمْ

أَرانَا إذا أضمَرَتْكَ البلا ... دُ نُجفَى ويُقْطَعُ مِنا الرَّحِمْ

بتسكين صوائتها القصيرة أو بدلّنا الصائت الطويل (الألف) في "أبانا" بصائت آخر، لما عدمنا ما تريده بنت الشاعر من معنى، على الرغم من أن تسكين الصوائت القصيرة يؤدّي إلى تكسير العروض وإفساده، ولكنه لا يؤثر على ذاتية المعاني، لكن اللواحق والسوابق والتصريفات وتحويل الأفعال من المعلوم إلى المجهول، فضلا عن أداءات خارج القواعد، ... وإذا لم تُراعَ مراعاة نظامية مطلقة، فإننا لا نأمن من أن تتحول المَبْتَغَيات إلى معاني مضحكة.

المعنى والحقول الدلالية

ومما يتراءى لنا أنه آن الأوان لنقْلِع عماً يُسَمّى بالحقول الدلالية les champs sémantiques دون تحديد منطقي لهذه الحقول، لأنه لا يوجد مجتمع لغوي يتعامل في تواصله بحقل دلالي مسيّج أو مُكَهْرب، فالوحدات اللغوية لا حدود لمجالاتها، ولا حصر لمداليلها سواء من ذات الوحدة نفسها أو من خلال تداعياتها السياقية حرةً أو مقيدّة.

من المعاني ما هو عامّ ومشترك بين العامة والخاصة، وهو ما يفهمه كل سامع طُبِع بطابع لغته وخُتِم بها، ومنها ما لا يكاد يَزْكَنُهُ إلا صفوة الخاصة ولعل ابن فارس أشار إلى هذه الإشكالية الدلالية إشارة واضحة بقوله : أما واضح الكلام فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب، كقول القائل : شربْتُ ماء، ولقيت زيداً، وكما جاء في كتاب الله جل ثناؤه – من قوله : ﴿حُرِّمَتْ عليكُم الميتَةُ والدَّمُ ولحمُ الخنْزِير﴾، وكقول

النبي (ص) : "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يَغْمِسْ يَدَه في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً" وكقوله الشاعر :

إنْ يَحْسُدُوني فإني غيرُ لائمهم

قبلي من الناس أهل الفضلِ قدْ حَسَدُوا

وهذا أكثر الكلام وأعمُّه، وأما المشكل فالذي يأتيه الإشكال من غرابة لفظه، أو من أن تكون فيه إشارة إلى خبر لم يذكره قائله على جهته، أو أن يكون الكلام في شيء غير محدود، أو يكون وجيزا في نفسه غير مبسوط، أو تكون ألفاظه مشتركة.[1]

1. المشكل لغرابة لفظه كقولهم :

- يَمْلَخُ في الباطلِ ملْخاً، أي يتردد ويكثر منه،
- يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ، إذا جاء باغياً متهدداً،
- وكقوله تعالى : "فَلاَ تَعْضُلُوهنَّ"[2] أي لا تمنعوهنّ التزويجَ،
- وكقوله جل ثناؤه : "ومن الناس مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ".

2. وأما المشكِل لإيماء قائله إلى خبر لم يُفْصَح عنه، فهو كثير في كلام العرب حديثه وقديمه، فصيحه وعامّه، ومنه قول الزبّاء :

- عسى الغُوَيْرُ أبْؤُساً.

أو كقول الشاعر :

وزَعَمْتُمُ ألاَّ حلُومَ لنا إنَّ العصا قُرِعَتْ لِذي الحِلْمِ

ومن الكلام ما لا يعرف معناه إلا بمعرفة قصته، فالذي لا يعرف أسباب نزول القرآن لا يجرؤ على تفسير باطنه، وكقوله جلّ ثناؤه : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لجبْرِيلَ، فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قلْبِك بإذْنِ اللهِ﴾.

3. وهناك المُشْكِلُ لأسباب أخرى :

3-1) إذا لم يكن له حدّ في نفسِ الخطاب، كأن يكون مجملاً غير مفصلٍ، ويحتاج فهمه إلى شرح وتفسير، كقوله تعالى : ﴿أقيموا الصلاةَ﴾ ففسرَّه النبي (ص).

---

1. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 74.
2. قرأ السبعة بضم الضاد، ولكن الفعل عضل من بابي قتل وضرب.

2-3) إذا كان لفظه وجيزاً، وظاهره لا يدل على باطنه إذا اعتمدنا على نسجه الشكلي دون إضافة عناصر لسانية لمعرفة فحواه، وهذا الصنف كثير في تراث العرب الكلامي لم يعد مستعملاً منذ فساد السليقة، ولعله موجود في خطابنا العاميّ الشفهي، لكنه غُيِّر تغييراً لم يعد يسمح بزكَنِه وملاحظته، لأن تعبيراً مثل :

– أمْرَ مُبْكِيَاتِك لا أمر مُضْحِكَاتِك،

يَضْطَرُك للرجوعَ إلى سيبويه، إذا أردت أن تعربه وتفهم معناه.

3-3) إذا كان لفظه مُشْتَرِكاً بينما معانيه مختلفة، كقول أحدهم : "وَضَعُوا اللُّجَّ في قَفَيَّ"[1]

ابن فارس يمدح الإعراب

وقال ابن فارس مادحاً الإعراب : "من العلوم الجليلة التي خُصَّتْ بها العرب الإعرابُ الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعْرَف الخبرُ الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجُّب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد، وذكر بعض أصحابنا أنّ الإعراب يختص بالإخبار، وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً، لأنّا نقول : أزيدٌ عندك ؟ وأزَيْداً ضَرَبْتَ ؟ فقد عمل الإعراب، وليس هو من باب الخبر."[2]

هل من تَحْدِيد مُنْ للجملة ؟

وإذا ما عاد متفقاً عليه بين اللسانيين أن عدد الجمل النحوية لا نهائي، فلأننا لا نستطيع أن نحدد منتهى أعلى لطولها، لأنه إذا كانت لديك جملة س سليمة، فحسبك أن تضيف إليها جملة موصولة proposition relative لتحصل على جملة ص أكثر طولاً من س وسليمة مثلها "بيد أن ذاكرتنا لا تتمكن من بناء أو تأويل جملة تتجاوز طولا ما بحيث إن عدد الجمل

1. أي وضعوا السيف في مؤخرّ عنقي.
2. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 77.

المحققة فعلياً منتهية، لكن الأداءات performances الممارسة لا تمنع أحداً من الحديث عن كفاءات compétences تعدّ من الناحية النظرية غير منتهية ... في حين أن العديد من الأداءات اللغوية لمتكلمين des sujets parlants تتوقع معلول جملة في سياق معطى مختصرةً إياها مؤتمنة en se fiant بوضع الخطاب لجعل معلولها معقولاً، وهذا يدل على أن أداءات لا تعود كلها إلى الكفاءات اللسانية، لأنها تُدخل معرفة العالم والآخر، وكذا ممارسة العلاقات الإنسانية التي يمكن أن تكون مستقلة عن النشاط الإنساني.[1]"

التقابلان الشّومسكي والدّيسوسوريّ

ويشار هنا إلى أن التقابل الشومسكي بين الكفاءة له الدور نفسه بالتقابل الديسوسوري الشهير بين اللغة والكلام، إذ بما أنه يجب أن يكون للغة قدرة على دراستها بمعزل عن الكلام، لكن لا العكْس، فإن الكفاءة معتبرة كأنها في الوقت نفسه ذات اقتدار لأن تُدْرَسَ قبل الأداء، "ومن جهة أخرى تَقَابلُ شومسكي يتوافق تقريبا مع المعيار الأول لدي سوسور، لأن الكفاءات بأخذها مجموعة كلية لا تنهض إلا بالإعراب عن الإمكان بإعطاء تأويل دلالي للسلسلة الصوتية المتتابعة، وبالمقابل فإنه لا يتناسب مع المعيار الثاني، لأن جملة من الجمل لا تُفْهَم دون نشاط تناسقي"[2]."...

بين التّرسيمة والاستعمال

غير أنه يوجد لدى العديد من اللسانيين تعارضات تقوم بنفس الوظيفة المعرفية épistémologique الموصوفة عند ديسوسور، ولا ترتبط عندهم ضمنيا بأي من المعايير الثلاثة الديسوسورية (اللغة، اللسان، الكلام) من ذلك أن النسقية la glossématique تميز في كل لغة بين الترسيمة le shéma والاستعمال l'usage، فالترسيمة ذات طبيعة شكلية صِرْف "جبريةً" أي تعلق بمجموع العلاقات التبادلية والتركيبية الموجودة بين عناصر اللغة بمعزل عن الكيفية التي تتمظهر فيها هذه العناصر، أي

بصرف النظر عن معناها وتحقيقها الصوتي، ذلك أن عمل اللغة كسَنَنٍ code يفترض أن الوحدات اللسانية المحدّدة دلالياً وصوتياً غيرُ واردٍ في الترسيمة اللسانية، بل فقط فيما يسميه هلمسليف الاستعمال، إن الاستعمال في الواقع هو الذي يحدّد شكل mode تجلّيات الوحدات.[1]»

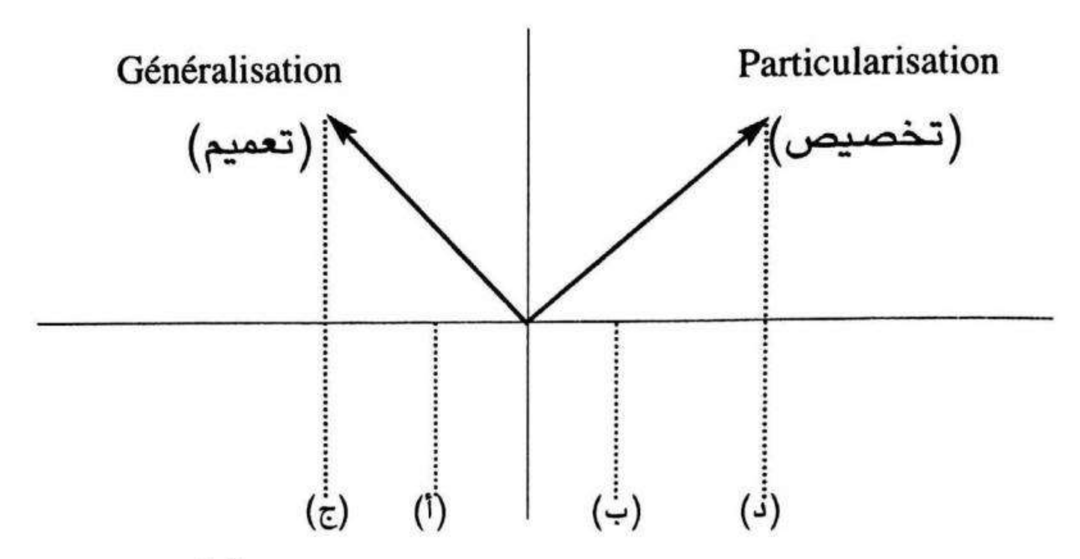
الكلمة عند غيوّم GUILLAUME

وأما مفهوم اللغة والكلام عند قيوم Guillaume فإنه يقوم بوظيفة تمييز ما يسمى المعنى وأثر المعنى effet de sens، فهو يرى أن كل كلمة، وبدقة أكثر، كل وحدة ذات أصغر دلالة تقابل في اللغة معنى واحداً، وتقدم لنا وجهة نظر جزئية واتجاهاً خاصاً على المعنى، ومن ثَمَّ، فإن "معنى كلمة في الواقع لا يمكن أن يستقر مباشرة في الخطاب، لأنه يجب أن يرْتَسِم كحركة للفكر، وكتطور تقدّميّ لمفهوم (لأجل ذلك تُدعى اللغة علم النفس الميكانيكي psychomécanique)، وهكذا،فإن معنى أداة التنكير الفرنسية فـو يُشار بها إلى حركة تخصيصية تنطلق من العموم إلى الخصوص، في حين أن معنى أداة التعريف زع يشار بها إلى حركة عكسية للتعميم، وعندما تستخدم أدوات التعريف في الخطاب، يلاحظ أن أثر السياق l'effet du contexte يعمل على إيقاف هذه الحركات، ... وهذا يفسّر لنا أن أداتي التنكير والتعريف قادرة على إفساح المجال لمفعول معاني متشابهة جداً، على الرغم من تنوّعها.[2]»

ويُرْسَم رسم بياني للتخصيص والتعميم على النحو التالي :

1. المرجع السابق، ص. 159.

2. نفسه، ص. 160.



أ) L'homme que tu as connu ← الرجل الذي عرفْتَ

ب) Un ami est venu ← جاء صديق

ج) L'homme est faillible ← الإنسان مخطئ (أوْ يَغْلَطُ)

د) Un homme est faillible ← إنسان مخطئ

إن سهم اليمين يمثل المعنى لأداة التنكير un، وسهم اليسار يوضح المعنى لأداة التعريف زع، بينما النقاط غير المتصلة يميناً وشمالاً تقابل مفعول أو أثر معاني (أ) و (ب) و (ج) و (د).

وما يقرّب بين سوسور وقيّوم لا علاقة له بمحتوى التعارض المستعمل، بل وجوده المدرك كأساس ودافع لأي بحث لساني، ويُرى في هذا المضمار أن معرفة المعنى المسبقة وحدها تسمح بفهم آثاره وعلله.

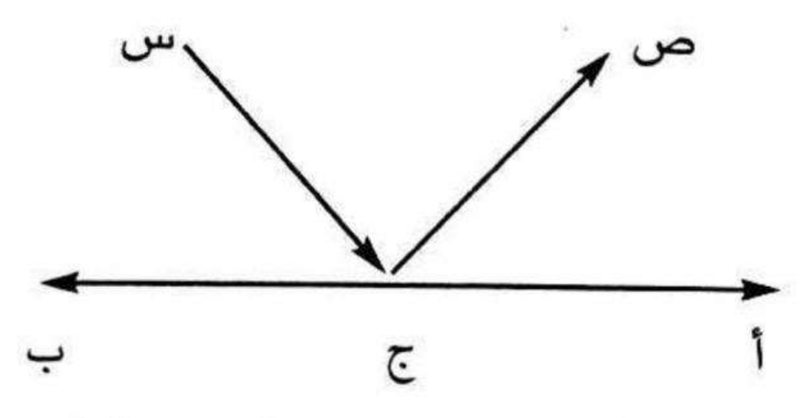
ومما يراه قيوم أن الكلمة يؤخذ معناها مستقلاً عن علاقاتها بالجملة، وهذا ما تعالجه المورفولوجيا، أما دراسة توافقات combinaisons هذه الكلمات في الجملة، فإن ذلك يتعلق بدور السانتكس syntaxe، ولذلك يُتَساءَل : من أجل بلورة نظرية تصل بنا إلى اللغة، هل نبدأ بنظرية الجملة أم بنظرية الكلمة ؟ يأتي ليجيب : "إن بنية الجملة تبدو مشروطة ببنية الكلمة."[1]

وبناء على الطرح القيومي أعلاه، فإنه يمكن القول إن السانتكس عنده مؤسسة على الكلمة، ونتيجة لذلك فإن المورفولوجيا عنده تحتلّ مكانة مهمة، أضف إلى ذلك أن هذه المكانة للمورفولوجيا عنده ضمنيا أنه

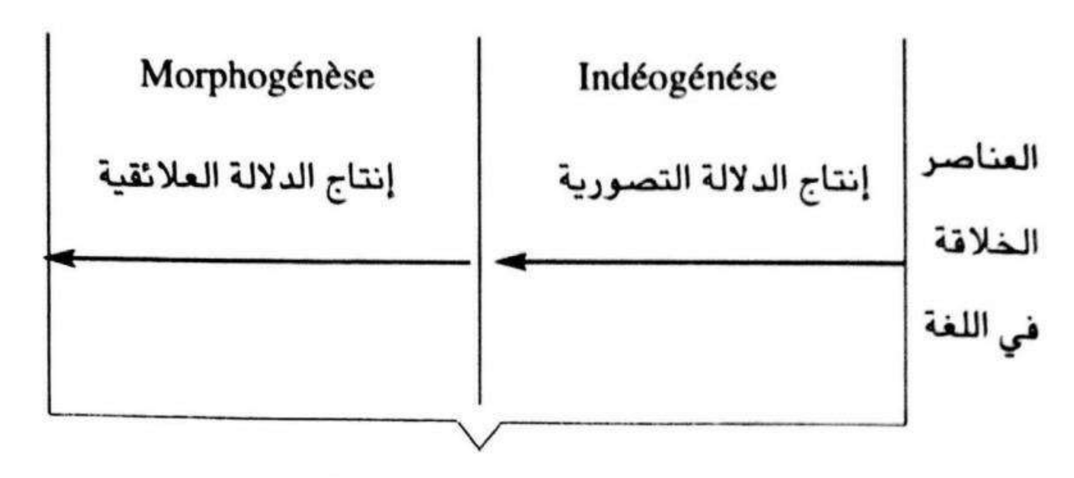
1. Initiation à la linguistique, P. 106.

لكي نفهم وظيفة كلمة، يجدر بنا قبل تحليل بنية الجملة التي تتواجد فيها هذه الكلمة أو تلك أن نكتشف قبل أي شيء بنية هذه الكلمة، لأن فهمنا لطبيعة العلاقة السانتكسية تابع لطبيعة الكلمات التي تدخل فعليا في هذه العلاقة "الإمكانات المتاحة للاستخدامات النحوية لكلمة والمراد بها العلاقات السانتكسية التي تسمح لها بالتوظيف محددة سلفاً، وقبل أن تركب في جملة."[1]

بالنسبة لقيوم أن إمكان دراسة مدلول كلمة ليس فقط ممكنا، بل يعتبر ذا أولوية، وما العلاقة عنده إلا في مصلحة مدلولها، لأن اللغة لديه ليست كنزاً للتصورات ولا قاموساً، وبناء على هذا التصور، فإن الدلالة تشمل، وفي الآن ذاته دلالتين : دلالة تصورية (فكرة)، ودلالة علائقية signification relationnelle يشار بها إلى الطريقة التي تدرك بها هذه الفكرة ذاهباً إلى أن النظام الانتقالي من مستوى اللغة إلى مستوى الخطاب لا يشترط إلا وقتاً قصيراً جداً لكنه واقعي، وخلال هذا الوقت يلتقط مساعيه الخاصة هي إلى حد ما طويلة المسافة عن أصله :[2]



حيث (س) بداية أصله، و(ص) نهايته، و(ج) عتبة التعاكس، ويتصور أن ما أسماه diogénise (العملية التي يتم بمقتضاها إنتاج الدلالة التصورية) تسبق ما أسماه la morphogénèse القاصد بها العملية التي تضطلع بإنتاج الدلالة العلائقية :



مراحل تكون الكلمة

Genèse du mot

وعموماً، فإن الكلمات تمثل لدى قيوم الجوهر الأساس للغة والنحو هو الذي يعطيها تغيراتها المتوقعة، مما يمكنها من الائتلاف في تنسيق يُرى دائماً جديداً، إلا أن تنسيقها أو تركيبها هذا لا يقرّر إلا لحظة الكلام، وهو خاضع إلى القوانين التي تنتمي إلى اللغة، خلافا للجملة بوصفها تركيبا للكلام، فإنها تنتسب إلى الكلمة كبناء لغة، مما يعني أن البنية السانتكسية عنده هي نفسها بنية الكلمة، ويظهر من الترسيمة القيومية أعلاه أن الكلمات ليست مواد فقط للبناء، بل عناصر خلاقة في اللغة، وما الجمل إلا صفوف لهذا البناء، بينما تمثل الفقر والنصوص مساحات جدارية، وإنهاء نص من الكلمات لا يعني انتهاءها، بقدر ما يعني المرور من إنجاز إلى إنجاز، ليس إلا.



الفصل الثالث

التحليل البنيوي للدلالة

مقاربات لسمات المعنى

لا يفوت جملةً من اللسانيين أن يعترفوا بصوت مرتفع أن مشكل المعنى يشغل، ومنذ مدة طويلة، بال الفلاسفة واللسانيين جميعاً،وهذا الانشغال الذي يجعل تفكيره حول مسألة السياق في المقام الأول ليس وليد اليوم "في نشاط التبليغ الكلامي، يلاحظ أن الكلمات تُستْقى من سجلّ العلامات الذي يعرف قوانينه الخاصة بالتنظيم، وهذا السجل Ce répertoire يكوّن نوعاً من القاعدة المشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وفي الوقت نفسه، يتملّص العديد من الدلالات عن فهم مباشر، الأمر الذي يتطلب من مستقبل المرسلة le message أن يبذل جهداً للتكيّف مع ما يستقبل من كلمات في حين التوصل بها."[1]

وهذه الحالة المبهمة كثيراً يمكن التطرق إليها هنا بقدر الإمكان، من ذلك أنّ محتوى المدلول الثابت لعلامة من العلامات، ولتكن (ن) مكوّنة من مجموع السمات الوجيهة المُمَيِّزة للدلالة

[2] Sémème =/sème 1, sème 2, sème 3,... sème n/ ← signification

علما بأن المحتوى الدلالي أو المعنوي le contenu sémique لِمَا يُطْلَق عليه

---

1. Initiation à la problématique structurale, Tome 2, P. 137.

2. Sémème = وحدة مجردة للدلالة، "مَفْهَم" تعادل – مثلاً – جذر الكلمة.
Séme = أصغر وحدة معنوية "مَعْنَم"

Lexème[1] يُشَرِّحُه كلّ من برنارد بُوتْيِي B. POTTIER وقريماس GREIMAS بأنه "إذا كانت المعانم sèmes س1، س2، س3، ... س ن تؤلّف المحتوى للكسيم أ (مأْصَل) فإن المفهم le sémème س لـ أ هي س = (س1، س2، س3، ... س ن)، هكذا مفهم الكرسي هي ("للجلوس"، "بأرْجل" avec pieds، "مع ظهْر" avec dossier، "دون عَضُدَيْن" sans bras، ... إلخ)"[2]، بمعنى أن المفهم كوحدة مجردة للدلالة تتضمن عدة معانم ثابتة constant ومعانم متغيرة variable.

وتشير بعض المصادر[3] إلى أن قريماس يُسَمّي "النواة الدلالية Noyau sémique المعانم الثابتة، و"المعانم السياقية" بالمعانم المتغيرة القابلة للتغير، في حين أن بِرنارد بُوتْيِي يرى أن المعانم الجِنْسِية les sémes génériques التي مجموعها يشكل ما دَعَاهُ classème[4] والمَعانم النوعية التي تؤلف السيمانتيم le sémème، معانم ثابتة، بينما المعانم التضمينية Connotatifs التي مجموعها يؤلّف الوحدة المعنوية المتغيرة le virtuème هي معانم متغيرة.

ولتوضيح مصطلح المعنم le séme أكثر فأكثر، فإنا نحيل إلى نص، أردنا أن ننقله دون التصرف فيه ؛ ويقول النص التالي إن المعنم "أدنى وحدة للدلالة، والتي لا يمكن أن تتحقق خارج إطار وحدة للدلالة أكبر منها :

---

1. Lexème = مجموع الوحدات المعنوية الصغرى (المعانم) التي تشكل مدلول هذا اللكسيم (مفردة مجرَّدة) والتي يمكن ترجمتها بـ"مَأْصَل" (جذر الكلمة) ولربما ترجمتها بعض القواميس اللسانية "مفردة متمكّنة"، بينما اكتفى بعضها الآخر بترجمتها إلى "مفردة"، ولربما ترجمتها قواميس لسانية أخرى إلى: مفردة (مجرَّدة)، وحدة جذرية (قارن مثلا بين المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيات، ص: 79، معجم علم اللغة الحديث، ص: 50، ومعجم اللسانية، ص: 123، ...)، ومن ثم"استأنسنا ببعض القواميس المزدوجة العامة التي رأيناها أقرب إلى الصواب من تلك "المختصة"، واستئناسنا لا يعني رضانا المطلق، مثلا، حين نقول: مَفْهَم ن پـغث = زغ معنم ن(1ث)زغ، معنم 2، معنم 3، ... معنم ن فإن الشكل مُعَبَّر عنه خطّيا، ولكنه لا يخلو من تساؤل ذهني دلالياً وتأويلياً.

2. Dictionnaire de didactique des langues, P. 487.

3. راجع المصدر السابق، ص. 487.

4. le séme مجموع المعانم الجنسية تمييزاً لها عن le sémantème التي مجموعها يشكل المعانم النوعية sémespécifiques، والمعانم الجنسية تشير إلى الانتماء لصنف عام مثل "مادي – matériel.

إنها المفهم le sémème، في تحليل المدلول، أي مستوى المحتوى ؟ أو ماهية المحتوى la substance du contenu، إذا أردنا أن نحيل على مصطلح هلمسليف – يُستَعمل المفهم، حيث نعزل هذا الأخير بوساطة التحليل التفاضلي مقارنين مداليل الكلمات لسلسلة استبدالية paradigmatique لها قاسم دلالي مشترك، بمعنى أنها تابعة appartenant لمجموعة قاموسية تُدعى أحياناً سِياقاً؟ نِظامياً Micro-système[1]، ومن ثمّ، فإن المعنم يبدو كعنصر ملائم pertinent للتمييز الدلالي بين لفظتين في السلسلة تماما مثل التمييز بين [P] و[B] اللذين لهما سمتان مشتركتان "شفوي مزدوج Bilabialité "و"ساد" occlisivité "تميزّهما عن سائر الفونيمات الأخرى، لكنهما تتعارضان بالسمة أو السمات "تصويت إجهاري"/" voisement غير إجهاري" non voisement، "أو مهموس" "sourde مجهور"sonore، وبالطريقة نفسها حصان وحِجْر اللذان لهما سمات مشترك تميزّ مداليل عن علامات أخرى تتعارض بسمات "ذكر mâle / "أنثى"femelle. إن التحليل الذي يسمح بإظهار المعانم des sémèmes والذي يقال له : "تحليل دلالي le sémème أو "تحليل ."componentielle"[2] والذي يقوم على الأنساق نفسها (أو الفرضيات ذاتها) يسمح كذلك بإبانة سمات متمايزة للفونيمات.[3]

ويرى المصدر ذاته أنه في التحليلين معاً والمشار إليهما في الفقرة السابقة نقوم بعزل سمات متزامة وغير متتابعة سواء تعلق الأمر بفونيمة (وحدة صوتية تمايزية) أو بوحدة معجمية، أي ألا يتعلق الأمر بوحدات خطية، وفي الحالتين أيضاً، فإن هذه السمات تنتمي إلى ما يسمى بالماهية أو الجوهر : (substance) ماهية التعبير بالنسبة للسمات الفارقة أو المميزة distinctif للفونيمات Phonèmes أو الوحدات الصوتية التمايزية، وماهية المحتوى بالنسبة للمعانم، مثال ذلك :

---

1. أو : "نظام في مفهومه الضيق" ويعني ميكرو – سيستام مجموع الكلمات المنتمية لنفس الميزان في التصريف أو لنموذج صرفي، أو ما يُحيط بحقل تصوري حيث مدلول كلمة يغطي جزئيا مدلول سائر الكلمات الأخرى، ... إلخ.

2. analyse componentielle– يعني أيضا التحليل الدلالي أو المعنوي باستخراج الوحدات المعنوية الدنيا الكامنة في لفظة ما مركزا تحليله على المكونات الدلالية والسمات الدلالية والمعانم داخل الوحدة المعجمية.

3. Dictionnaire de didactique des langues, P. 485.

	وحدات غير دالة		وحدات دالة	
سمات مناسبة Traits pertinents	شفوي سَادّ فَمويّ مهموس	شفوي ساد فَموي مجهور	لجلوس شخص واحد أرْجُل عَضُدان	لجلوس شخص واحد أرْجُل دون عَضُدين
	[P]	[B]	أريكة	كرسيّ

وتبعا لبرنارد بوتيي، فإن "الشخص الواحد، و"أرجل" سمات تميّز الكرسي والأريكة عن المقعد أو المنفوخة le pouf، أي "بالعضدين" أو "غير العضدين" يتعارضان مع الكرسي والأريكة، ويرى هذا اللساني دائما أنه بوسعنا أن نميّز أنماطا مختلفة من المعانم مذكرا أن هذه الأخيرة ثابتة سواء كانت نوعية spécifique أم جنسية générique، وهي تنتمي إلى الدلالة الذاتية la dénotation، أما المتغير منها أو القابلة للتحقيق actualisable والمسماة كذلك وحدة معنوية متغيرة virtuéme فهي منوطة بالتضمين la connotation، ويضرب المثل على ذلك بكلمة البقرة التي هي معانم قارّة وتعيينية dénotatifs، لا تخرج عن كونها "حيواناً"، "بقرياً"، ... (معانمها نوعية)، "حي غير إنساني"، "غير متواصل ... "discontinu إلخ (معانم جنسية)، وتنتمي أيضا إلى معانم متغيرة sème variable وتضمنية connotatifs، "قوة"، تَمَهُّل،...

ووضع قريماس من جهته تمييزا بين نواة دلالية ثابتة ومعانم سياقية، والنواة الدلالية عنده تقابل المعانم القارّة عند بوتيي Pottier، وذهب قريماس إلى أنه يمكن أن يُمَارَسَ هذا التحليل في اللغة، لأن العمل على مستوى ميكرو – نظام يسمح لنا بشكل خاص أن نتخلص من المعانم النوعية، ولكنه يلحّ على ضرورة العودة إلى التحليل على مستوى الخطاب لكشف المعانم التضمينية لمصطلح بوتيي، أو السياقي بمصطلح قريماس.

وما مضى إدراجه حول أصغر وحدة مجرّدة للدلالة وما لحق بها من مصطلحات تدور كلها حول مجال الدلالة والمعاني لم يزِحْ كلياً حتى الآن ما لا يزال عالقاً باللسانيات العامة والتطبيقية والنصية ... من إشكالات أقرب

إلى الغموض منها إلى الوضوح، فضلاً عن كونها تقوم على أفكار ساذجة وبسيطة جداً، وفي الوقت نفسه لا تكاد تخلو تحاليلها من طروحات خارج لساني"، لأن التخمينات والتقديرات غير مستحب" بل مرفوض في اللسانيات التي تحدد نفسها منذ زهاء قرن بأنها الدراسة العلمية للغة.

ولذلك، فإن بعض المصادر تتساءل :

– إذا كان les sèmes (المعانم)مكشوفة تعارضاً مع اللكسيم (الوحدة الأساس للمعجم) داخل مجموعة معجمية (ميكرو–نظامي أو حقل)، فكيف نحصر هذه المجموعة القاموسية ؟

– كيف تكون العلاقات بين كلمات مجموعة قاموسية بالنظر إلى كلمات مجموعات قاموسية أ، ب وج التي تتعهد بينها بإقامة علاقات التجاور ؟

– كيف نحسبُ les sèmes المعانم ؟ فالكرسي الممثّل به سابقاً "بدون عَضُدَيْنِ" هل هو sème أو غياب sème ؟ في منظور مرجعي ليس معنماً، لكن على مستوى العلامات يحوي على sème (معنم.)

– ثم كيف يمكن القول إن إحدى الوحدات للدلالة التي تدخل في التراكيب كما في sémème (وحدة مجردة للدلالة) وحدة دنيا ؟ وأين يتموضع عتبة الأدنى ؟

ويضيف المصدر ذاته معقبًا على sème (معنم) و sémème (مفهم) ونحوهما أن التحليل الدلالي l'analyse sémique وحده لا يكفي لجعل الممكن من اللاممكن واضحا في التوافق combinaison في سلسلة العلامة المدروسة :

حصان + من ذوات الأربع قوائم + ذكر،...

زينب + بشر + أنثى + ذات رجلين + ذات نهدين،...

ولذلك، فإن برنارد بوتيي يميز إلى جانب séme المعانم سمات أخرى d'autres traits تبين أن توزيع العلامة ووظيفتها علائقي relationnels أو (ترابطي") مبرزا أن توافقات أو تنسيقات المعانم les sèmes التعيينيةّ

وكذا ما أسماه classème (مجموع المعانم الجنسية) تعمل على تعريف القيمة لوحدة صرفية والمسماة gramméme والسمات النحوية المطلق عليها taxéme ينهض بتعريف قسم كبير من سلوكه النّظمي"[1]

ويرى بعض اللسانيين أن محتوى المدلول يتحقق كذلك بسبب هذه المعانم داخل مقام situation تواصلي، والذي يتطابق في الخطاب الشعري مع حدود الشعر، إذ حين نقول :

"الأرض زرقاء كبرتقالة la terre est bleu comme une orange"

فإن هذا المحتوى مقبول على الرغم من ارتفاع درجته عن محتواه الأصلي، أي التعبير الحقيقي، لأنه يربط أو يصل لفظتين مجردتين deux lexèmes (أرض – برتقالة)تمتلكان في اللغة مَعْنَماً مشتركاً لشكل كروي.[2]

التداعيـات البنيويـة للدلالـة

ونحن هنا لسنا في مجال تحليل النصوص، ولكن تحليل تركيب ليس بأقل أهمية بنيوية من تحليل نص قصيراً كان أم طويلاً، ولذا فخلال عملية التحليل لمعنى يُفرّق بين العلاقات الدلالية التي تنشأ بين اللكسيمات (الألفاظ المجرّدة أو الفارغة) التي تكوّنها من جهة، والتداعيات أو الترابطات "المزعومة" بين المراجع المحال إليها لهذه اللكسيمات من جهة أخرى "إذ ينبغي ألاّ نخلط هذه العلاقات المنطوية على مغامرات بهذه اللكسيمات التي تنشئ بنيتها، ... حقاً، كل شيء يحاول أن يكون موصولاً مع أي شيء آخر متواجد معه في نفس المحيط الملموس، غير أن هذا لا يجب أن يسمح لنا بالاستدلال مباشرة على وجود علاقة أو علاقات دلالية كثيرة، فالصلبان الموجودة في المقابر متداعية عفوياً لأنها تمثل لنا

1. راجع هذه الإشكالات في :

Dictionnaire de didactique des langues, p .486-487.

Dictionnaire de linguistique, p. 433... Jean Dubois.

وفي غيرهما من المراجع والمعاجم اللسانية الحديثة.

2. Initiation à la problèmatique structurale T2/137-139.

"غابات" من الصواري لا علاقة لها باللسانيات في حد ذاتها، وتعكس إطلاقا شكلا من حضارة تعودّنا عليها."[1]

ويرى لسانيون أن الطابع le caractère المقبول إلى حدّ ما لهذا التداعي أو ذلك بين مُحَالَيْنِ إليهما يؤول غالبا إلى التساؤل فيما إذا كان يجب أن يؤخذ هذا التداعي بعين الاعتبار في الوصف الدلالي للمُحَالَيْنِ إليهما، وهو المشكل الذي يعرفه جيدا المعجميّون، غير أنهم يرون في الوقت نفسه أن النص الشعري texte poétique يتحرّر بأكثر سهولة من هذا الشكل القَسْري، ويضربون لذلك مثلاً بأن الصليب يشير إلى مشنقة مصنوعة من عمود مقطوع بعارضة نربط إليها المجرمين لإعدامهم، في حين أن المقبرة المكان الذي ندفن فيه الأموات، ومع ذلك فإن المحال إليهما لا يخلو من تداعيات مشتركة، لأن المشنقة والمقبرة سواء كان فيهما صلبان أم لم تكُن، فإن ترابطهما يكاد يكون واحداً، لأن الإنسان لا تعنيه المقبرة قليلاً ولا كثيراً بقدر ما يفكّر فيما يؤول إليه مصيره، ثم إن لصليب لا يعني كل الأديان وقوانين الدفن والإعدام في ثقافات الشعوب، ولذلك كان يرى برنارد بوتيي أشار فيما أشار إلى تتابع séquence ملفوظات énoncés محدّد سانتكسيباً، وموصول دلالياً، أي أن معنى من المعاني المشار إليه لا يدرك إلا بوجود هذين المستويين السانتكسي والدلالي، علما بأن المقصود بالمعنى هنا لا يعني كلمة أو تركيباً أو رواية، بل يعني الإطلاق لأي شكل لساني متواصل به شفهيا أو قيل وانتهى ثم لمرسلة ما.

أيا كان الأمر، فإنه ليس من النادر التأكد من أن تداعيات لهذا النوع من اللكسيمات تتواجد بيُسر، ويمكن أن تلمس إذا ما عملنا على مقارنة حالات اللغة البعيدة في الزمن أو الموغلة في القدم، ولذا يتساءل بعضهم : "أليس من خصوصية كلمة بذاتها الدالة على شيء أنها لا تُرى فقط في استعمالها، بل كذلك في شكلها، وأنها قادرة منذ الآن على الدخول أيضا في نسق استعاري مرتبط بالفضاء ؟"[2]، ومن ثم، فإن كل لساني يكترث بدراسة نصوص مغلقة clos لا يمكنه بحال أن يقبل الأخذ بعين الاعتبار

1. المرجع السابق، ص. 149.
2. المرجع السابق، ص. 149.

لبناء دلالي خارجي عن النص المدروس، فضلا عن كون هذا البناء الدلالي الخارجي يتصف بطبيعة مختلفة كليا عن ذلك البناء الذي تعرفه اللغة.[1]

وإذا ما وقفنا عندما أشار إليه بوتيي بشأن أن تتابع ملفوظات محدّد سانتكسياً مربوط دلالياً، فإنه يوحي لنا عدم انفصام هذين المستويين بخصوص أي ملفوظ يحمل معنى أو يعاد شحنه بمعنى كان وثالث، ... لكن المتكلم بلغته الطبيعية هو الذي يحدّد هاتين البنيتين لأنهما بنيتان طبيعيتان تخلق مع اللغة وتتكون مع المعنى وتزول بزوالهما، وما تعلّم لغة أو لغات تعلما بوساطة الاكتساب البيداغوجي إلا تعلّم بقدر الإمكان لهاتين البنيتين السانتكسية والدلالية، فالمتمكن من اللغة العربية يستطيع أن يؤخّر ويقدّم في جملة مثل :

1. الطفل كسّر الزجاج بكرته

2. كرة الطفل كسرت الزجاج

3. إن كرة الطفل هي التي كسرت الزجاج

4. إن الزجاج هو الذي كسره الطفل بكرته

5. إن الطفل هو الذي كسّر الزجاج بكرته

والمتمكن من الفرنسية لا يختلف عن المتمكن من العربية ليقول :

1. L'enfant a cassé la vitre avec son ballon
2. Le ballon de l'enfant a cassé la vitre
3. C'est le ballon de l'enfant qui a cassé la vitre
4. C'est la vitre que l'enfant a cassé avec son ballon
5. C'est l'enfant qui a cassé la vitre avec son ballon
6. L'enfant va casser la vitre avec son ballon
7. Etc …

وإذا كانت كل هذه الملفوظات الستة ممكنة، لأن ما ينظّم الواحدة منها ينظم الكل على المستويين السانتكسي والدلالي بوجه أخص،

---

1. نفسه، ص. 149.

فالمتكلم لا يزيد على أن يركّب الأدوات أو العناصر بصورة آلية أو اصطناعية تبعاً لمعرفته التي تمكّنه من اختيار العنصر الذي يلائم التركيب المعبّر عن غرضه، مما يبدو أن "الملفوظات التي تنتجها ملفوظات مُضْمَرَة sous-tendus بوساطة العمليات الذهنية، وأن المكوّن الدلالي الذي يُشرف على تنظيم العلاقات ليكن أكثر عمقاً، ثم يأتي دور المكون السانتكسي الذي يتكفل بالبناء من قبل إجراء تحويلات، وهذه العلاقات الأساس حسب السانتكس الخاص بكل لغة، ويستقبل الملفوظ شكله الماديّ بفضل المكون المورفو-فونولوجي Morpho-phonologique (تنسيق الأصوات Agencement des sons)"[1]

العلاقة البنيوية بين الدال والمدلول

وأما قريماس الذي سنركّز هنا عليه كثيرا من خلال كتابه الشهير "علم الدلالة البنيوي sémantique structurale للمعنى، فإنه بعد إنحائه باللائمة على اللسانيين الذي أهملوا، أو كادوا يهملون، هذا الحقل من دراساتهم اللغوية، ينبري إلى الحديث عن أول التصورات العملية، حيث يصرّح أنه لا يمكن لنا أن نعرف شيئا ما كدالّ ونمنحه اسماً ما لم يكن هذا الشيء مدولاً حقا، بل وجود دالّ يفرض وجود مدلول.[2]

وبشأن الارتباط la corrélation أو العلاقة بين الدال والمدلول، يشير إلى أنه ليس لنا الحق أن نقرِّ أن تصنيف دوالّ يقابل قسماً موازيا لمداليل، وذلك لثلاثة أسباب :[3]

1. الدوال التابعة لنظام حسّي بعينه يمكن أن تصلح لإنشاء مجموعات مستقلة من الدوال، كما هو حال اللغات الطبيعية والموسيقى، إلا أنه يجب أن ننتبه مع ذلك إلى أن الأبحاث حول أمراض الكلام للغة سمحت بالبرهنة على أنّ التمييز بين الضجيج، والأصوات الموسيقية، وأصوات اللغة سابق على استثمارها من قبل المداليل.

---

1. Pour comprendre la linguistique, p : 194.
2. Sémantique structurale, p : 10. A.J Greimas.

3. المرجع نفسه، ص. 11.

2. إن الدوال ذات الطبيعة الحسية المختلفة يمكن أن تُعيد تغطية مدلول مطابق، أو، على أقل تقدير، معادل équivalent، وينطبق هذا على اللغة المنطوقة واللغة الخطية.

عدة دوال يمكن أن يتداخل في نسق processus إجمالي واحد للدالّ كما هو الحال في الكلام والإيماءة le geste.

ويرى قريماس في الفكرة ذاتها قائلاً: أياًّ كان وضع statut الدال، فليس هناك أي تصنيف ممكن للمداليل انطلاقا من الدوال، ونتيجة لذلك، فإن الدلالة la signification مستقلة عن طبيعة الدال بفضل الموقع الذي تتجلى فيه"[1]، موضحا الفرق بين ما أسماه دوال" الطبيعة" وأخرى "اصطناعية"، فالأولى تخص اللغات المتمفصلة articulée والثانية خاصة بالاصطناعية، لكن معايير أو طابع هذا التقسيم، مع ذلك، لا تبدو بصورة واضحة، إذ يتضح ما يجب البحث عنه ما هو كامن في تلك العناصر القائمة بذاتها والمشكلة للدالّ، ففي حالة مجموعات الدوال الاصطناعية أن إشكال العناصر القائمة بذاتها أو المتميّزة les éléments diserets يُطرَح قبلياً أو سابقاً لأي إختيار، على حين أن مجموعات الدوال الطبيعية لا تُخلي سبيل وحداتها القائمة بذاتها المؤلّفة إلاّ بعدياً à postériori[2] ذاهباً إلى أن قانون أو وضع اللغات الطبيعية يجعلها أكثر أفضلية من اللغات الاصطناعية بحكم نقلها أو إبدالها transposition وإمكان ترجمتها، فضلاً عن كونها تتحقق في شكل صوتي وشكل خطي.

ويرى هذا اللساني أن الطريقة الوحيدة في الوقت الحاضر لتَنَاوُل مشكل الدلالة يكمُن في تأكيد وجود ما يعرف بالانقطاع discontinuité على مستوى الإدراك الحسّي، غير أنه يعترف بأن التصورّ للانقطاع الذي لم نتمكن من تعريفه ليس خاصا بعلم الدلالة أو خليقاً به.

بين الارتباط والانفكاك

وبالنسبة للعلاقة بين conjonction (الارتباط) والانفكاك disjonction، فإنها مُعْتَرَضة بملاحظتين مضاعفتين منذ البداية:

1. ذات المرجع، ص. 11.
2. ذات المرجع والصفحة.

1. ليكون الشيئان deux termes objets قادرين على أن يدركا أو يُستَولى عليهما معاً يجب أن يكون لهما شيء مشترك، وهنا يبرز مشكل التشابه، وبالنسبة لامتدادهما يظهر مشكل التماثل l'identité.

2. وليكون الشيئان ذَوَيْ قدرة على التمايز ينبغي أن يكونا مختلفين بأي حال، وهنا يبرز مشكل الفارق وعدم التماثل خاتما تحليله "مشكل الاتصال والانفصال نلاحظه يظهر ثانية réapparait ولو بطريقة مختلفة قليلا، إذ إن العلاقة تُعْرِب الآن عن طبيعتها ذات الوجهين : إنها في الوقت نفسه اتصال وانفصال."[1]

البنيات الأولية

ويواصل تحليله للبنيات الأولية structures élémentaires للطابع المزدوج للعلاقة المشار إليها أعلاه ملاحظاً أن هذه العلاقة يمكن أن تتمظهر في كل المستويات اللسانية معطيا أمثلا :

أ– طريق وطني vs(ضد) طريق مُحافَظي،"

pas (خطوة) vs (ضد) bas (أسفل)،

ب– Voisé (b) (مُصوِّت) non voisé vs (p)(غير مصوت)،

Grand (كبير) vs petit (صغير).

مؤكداً على أن المثالين الأولين الواردين في (أ) لا يثيران صعوبات، لأن كل عبارة terme تمثل علاقة تمتلك فعلاً عنصرين اثنين الأول منهما (طريق) وهو متصل conjoint بينما الثاني (وطني vs محافظي pvs b) منفصل البنية disjoint la structure.

وأما المثالان الأخيران (ب) فيظهران بأنهما أكثر دقة حتى بسبب بساطتهما، لأنه إذا كان وجود العلاقة بين العبارتين entre deux termes لا يطرحان أمامنا أي شك، فإن الطابعين للعلاقة موُصلٌ وفاصل conjonctif et disjonctif لا ترى فوراً : "نقصد بإشارتنا إلى اسم البنية الأولية كنمط علاقة بالفعل لأنه من

1. نفسه، ص. 20.

المتفق عليه أن (termes-objets حدود – أشياء) وحدها لا تتضمن دلالة، إذ يجب أن نبحث على مستوى البنيات الوحدات الدلالية الأولية، وليس على مستوى العناصر، فهذه الأخيرة المسماة علامات أو وحدات مركّبة unité constitutives أو أصغر وحدات دالة monèmes ليست إلا ثانوية في إطار البحث حول الدلالة، ومن ثم فإن اللغة ليست نظاما من العلامات، بل تجميعاً للدلالة"[1] منتهياً إلى أنّ البنية الأولية يجب ألاّ يبُحث عنها في مستوى التعارض pas vs Bas : بل في مستوى البنية :

p vc b

ومن المقبول أن نعتبر أن هذا التعارض يكمن في الطابع (غير مصوّت) voisé vs nonvoisé (مجهور أو مصوّت) للفونيمتين (p و b) اللتين مكّنتا من المقارنة لكون تعارضهما يَتَموْضَعان في نفس المحور الواحد، إنه الإجهار أو التصويت le voisement.

العلاقـة بين البنيـات الأوليـة

وبخصوص العلاقة بين البنيات الأولية يرى قريماس أنه لكي نجد أو نختلق في كل مرة التسمية la dénomination المناسبة للمحور السيمانطيقي، يمكن أن ندرك وصفا بنيويا ذا نمط علائقي relationnel يقوم من جهة على بيان لفظتين deux termes للعلاقة، ومن جهة أخرى على بيان المحتوى السيمانطقي لذات العلاقة مشيرين بـ A و B إلى الكلمتين termes-objets وبـ s إلى المحتوى السيمانطقي، ويؤول بنا كل هذا إلى التعبير عن البنية بوساطة :

A/ في علاقة (S) مع/B

والعلاقة بين A و B تتفكّك أو تتحلّل الآن إلى :

1. تتابع séquence العلاقة مع "est en relation avec والذي هو عبارة عن تأكيد "مجرّد" لوجود العلاقة (R) بين اللفظتين.

---

1. نفسه، ص. 20.

المحتوى السيمانطقي للعلاقة (S) المشار إليه آنفا كمحور سيمانطقي، ويمكن كتابة الصيغة بأكثر بساطة :

A / R (S) / B

وإذا ما رغبنا في أن نُدقّق أكثر في القانون أو الحالة أو الوضع اللساني le statut-linguistique، فإنه من الجليّ أن ما يسمى الكلمتين أو اللفظتين – الشيئين أو الموضوعية les deux-termes[1] A وB تنتميان إلى اللغة – الموضوع أو الغرض حيث يجري الخطاب، واللتين يمكن أن تُفْقَهَا في حدث أو فعل الإدراك الحسّي، ويُعدّ المحور السيمانطقي S نتيجة الوصف الكلية التي "تجمع في الوقت نفسه التشابهات والاختلافات المشتركة للّفظتين A وB ؛ وعليه، فإن S يتعلق بلغة دلالية واصفة، أما العلاقة R، فإنها مُفْتَرَضَة سلفاً ابتداء من انطلاق هذا التأويل، وإذاً فـ R تنتمي إلى اللغة المنهجية، ولا يمكن تحليلها على مستوى نظرية استقصاء المعارف."[2]

التمفصلات الدلاليـة

وينتقل الرجل إلى الحديث عن التمفصلات الدلالية les articulation معقباً أنه "في الوقت الذي نقبل فيه اعتبار محتوى العلاقة كشيء ما وراء اللغة métalinguistique ، وهو ما رمزنا له بالرمز), فإنه من الممكن أن ننظر بدون قلق منهجي إلى التعبير العملي l'expression opérationnelle للمحور السيمانطقي[3] بوصفه عناصر للدلالة التي لها لفظتان – غرضان termes-objets مختلفتان مُشتركتان في العلاقة معتبرين عناصر كأولويات لهذه الألفاظ."[4]

---

1. لست مقتنعاً بهذه الترجمة ولا بالترجمات السابقة لهذا المصطلح اللساني، لأن terme يعني في السانتكس le mot (الكلمة)التي تضطلع في جملة بوظيفة محددة، ولذا فهو (terme) يستخدم أحيانا مرادفا للكلمة أو(item كل عنصر لمجموعة: نحوية، معجمية،... وله خصوصية (أخ، أخت، كرسي،...) أو عنصر عندما يتعلق الأمر بوصف بنية، لأن terme يتضمن شكلا معرفا بوساطة علاقات l'item مع "الاتمات" les items الأخرى للبنية، ولو ترجمنا هذا التركيب : الكلمة – الغرض أو اللفظة – الغرض أو الكلمة – الهدف ... إلخ، لما حق لأحد أن يعترض لما هو أفضل، ولكن لا بد من التعبير بشيء، وترك أشياء أخرى.
2. نفسه، ص. 22.
3. يبدو لي أنه من المناسب أن نكتب sémantique كما هي تمييزاً لها عن signification التي تعني هي الأخرى دلالة أو معنى.
4. المرجع نفسه، ص. 22.

ويأبى قريماس إلا أن يعود قليلاً إلى الوراء ليعيد شرح هذه العلاقات الدلالية المتشابكة بتوضيحات دلالية رياضية بسيطة، من ذلك إذا ما أخذنا بعض الأمثلة التي سبق له أن مثّل بها، فإننا نستنتج من كلامه أن محور التصويت أو الإجهار l'axe de voisement (s) يمكن أن يؤوّل كعلاقة (R) بين العنصر المصوِّت voisé (S1) والعنصر غير المصوّت(S2)، وفي هذه الحالة، فإن لفظة – غرض A terme-objet (فونيم b) يمتلك الأولوية (S1) (مصوّت)، في حين أنّ لفظة – غرض B (P فونيم) لها أولوية العنصر(S2 غير مصوّت).

b (voisé مصوّت)RP(nonvoisé غير مصوّت)

مما يعني أنها ليست إلا حالة خاصة لصيغة أكثر عموماً : A (S1) R B(S2)

وهذه الصيغة يمكن أن تتحقق منذ اشتراكها في تحليل أية علاقة، كما هو حال ما بين لفظتين – غرضين :

(ولد) garçon (جنس) fille R (بنت)

يمكن لهما أن يؤديّا إلى : (ذكورة masculinité) R garçon أنوثة fille (féminité.

علما بأن عناصر الدلالة (S1, S2) الطليقة أو المخلَّصة dégagés هكذا يسميها رومان جاكسيون السمات الفارقة أو التمايزية traits distinctifs، وبالنسبة إليه ليست أكثر من ترجمة إنجليزية ترجمت إلى الفرنسية تحت مصطلح عناصر تباينية أو تفاضلية éléments différentiels كما كان يدعوها دي سوسور، ولكن قريماس يبدو أنه لا يطمئن إلى هذا ولا إلى ذاك، وبدافع التبسيط المصطلحي، فإنه يقترح لعناصر الدلالة مصطلح sèmes (المعانم)، مبررًا هذا بالنظر إلى أن بنية أولية ممكن أن تكون مفقوهة saisie وموصوفة إما تحت شكل المحور السيمانطقي، وإما تحت شكل التمفصل الدلالي أو المرتبط بالوحدات الدلالية الصغرى articulation sémique.

واعتبارا لما تتصف به البنية الأولية أو الأصلية بالنتيجة التي خلص إليها قريماس، فإنه يحيل على الوصف الفونولوجي العربي الكلاسيكي الذي استعاره من جاكيسون قائلا : "إن الوصف الفونولوجي للعربية الكلاسيكية بفونيماته الست والعشرين فقط يعطينا، وفق حسابات كانتيون CANTINEAU، سجلاً un répertoire من 325 تضادُداً opposition يتعلق الأمر هنا بعلاقات تضادُدِيَّة غير موصوفة non décrites، ولو تحت شكل محاور موضحا أن وصف العربية المنطوق اللهجي الشمالي لفلسطين الذي بحوزته 31 فونيمة يَنمّ أولاً وأخيراً عن وجود تسعة أضداد ثنائية" Binaires[1]، حتى وإن كنّا نحتفظ بشأن هذا المثال الذي استقاه قريماس من جاكبسون، مادام أنه قد مثّل بجزء ضيق للمنطوق الشفهي للغة العربية، ولا نحسب أن أحداً ينتمي إلى لغة متعدّدة المستويات قادرة على صياغة مقولة صوتية وصفية حقيقية كل الحقيقة، خاصة إذا كانت هذه اللغة منظومة لسانية كالعربية، فما بالك لو كان هذا الدارس لا ينتمي طبيعيا لها ؟ فصور الفونيمات في العربية الطبيعية مختلفة اختلافا بعيداً عن الفصحى المكتسبة، قد يَحْدُثُ أن يُنْطقَ في العاميات العربية التي لا يعلم دارس من الدارسين عددها، بأكثر من صورة مختلفة لفونيمة واحدة (وحدة صوتية تمايزية) دون أن يعمل على قلب معنى الكلمة ذاتها، ولربما أدّى تباينها الدلالي، ثم لاندري من أين يأتي كانتيتو بهذه الفونيمات الست والعشرين ؟ هل الفونيمات تنقص أو تزيد في العاميات العربية ؟ إن الفصحى نفسها تجاوز عدد فونيماتها إلى أكثر من أربعين منذ عهد سيبويه حتى وإن لم يؤثّر تباينها النطقي أو التمفصلي في دلالات الكلمات، بل الأصوات بين الفصحى وعامياتها العربية متباعدة فيما بينها تباعدا شديدا، حتى إنه ليمكن القول بأنه لا يكاد يُلاحَظُ صوتان متطابقان بينهما لا ماضيا ولا حاضرا، ولكننا نتفق مع قريماس بأن كيفيات التلفظ أو الوصف الدلالي أو المعنوي يشكل أحد الجدالات القوية في لسانيات اليوم.

---

1. نفسه، ص. 22–23.

تَمَفْصُلُ المحور السيمانطيقي إلى مَعْنَمَيْنِ

أيّاً كان الأمر، فإن أنصار الثنائية Binarisme سواء تعلّق الحال بما كان منطقيا أو عمليا opérationnel، كما هو الحال بالنسبة لجاكبسون وتلامذته، يذهبون إلى أن محوراً سيما نطيقياً يَتَمَفْصَلَ أو يُتَلَفَّظ في مَعْنَمَيْن deux sèmes بدَلَ مَعْنَم واحد، مما ينجم عن هذا التمفصل المزدوج بالنسبة لتحليل الوحدات الدلالية الصغرى أمارات من الالتباس مثل :

(موسوم) Marqué vs non marqué (غير موسوم)

نحن هنا في صلة مع مَعْنَم موسوم أي موجود في أحد القطبين المتواجد في علاقة مع المعانِمِ غير الموسومة، لأنها غائبة في القطب الآخر :

S vs - S

غير أنه هذه الترسيمة ce schéma لا تنطبق على التضاد الثنائي :

(أنوثة féminité) fille (بنت) vs (ذكورة masculinité garçon) (ولد)

لأنه لا يكفي أن يُتَحَقَّق من غياب مَعْنَم "ذكورة" في لفظة – غرض بنت terme-objet، لأن هذه اللفظة تمتلك خاصة المعانم "أنوثة" ومن ثمّ، فإن التلفّظ أو التمفصل يمكن أن يعبرّ عنها على النحو :

S vs non S

وهذان النمطان من التمفصل الدلالي ما يأخذ بهما بنوع خاص جاكبسون، ويتم التضاد في هذه الحالة :

(كبير) grand vs petit (صغير)

مما يقودنا إلى المعاينة بكل سهولة من وجود ثالث لفظة – غرض، وليكن بين أو وسطا بين كون المشار إليه لا صغيراً ولا كبيراً في سن المشار إليهما أعلاه.

وإذا وقفنا من خلال قريماس على المسلّمات للبينات الأولية التي تناولها بروندال Brondal، فإن هذه الظاهرة يمكن أن تُؤَوَّل بالوجه التالي : إذ السِّمات القطبيّان les deux sèmes polaires :

S vs non S

المشار إليها من بروندال على النحو :

(سلبي positif vs négatif (إيجابي)

يمكن أن يقبلا ثالثاً، وتعريفها لا هي S ولا غير S، ويسميها محايداً neutre، ويكون التمفصل في هذه الحالة على النحو :

إيجابي ضد محايد ضد سلبي
(كبير)ضد (متوسط) ضد (صغير)
Positif vs neutre négatif
(grand) vs (moyen) vs (petit)

وفي الحالات الأخرى، فإن المعنم sème المتداخل أو المتخلل intercalaire ممكن ظهوره comme étant ( ) وs لا كـ : S ، وساعتها سيأخذ اسما معقداً، إذ التمفصل أو التلفظ التالي : (ذاك) vs cela (هو) on vs il (ضمير نكرة).

يمكن أن يُفَسَّر كـ : Positif vscomlexe vs négatif

(personnel) (et personnel et impersonnel) (non personnel)

أي : إيجابي ضد معقّد ضد سلبي

(شخصي) (وشخصي ومُبْهَم) (غير شخصي)

تعقيب غريماس على لسانيين

غير أن ڤريماس يرى أن هذين الموقفين لكل من بروندال وجاكبسون يظهران لأول نظرة لا يمكن التوفيق بينهما inconciliable، وتناقضهما بَيِّن، والبنيوية البوندالية ثنائية مثلها مثل بنيوية جاكبسون "نحن مَجْبَرون مسبقّاً هنا لإدخال التمييز بَيْن نمطين مختلفين بغرض الفهم والتصور الممكنين للدلالة : إن الدلالة على اعتبار أنها مُلاَزمَة (أو مثولية) immanence، والدلالة باعتبار أنها إفصاح manifestation غرضها تبديد الغموض غير المجدي لإبقائه طويلاً، فالبنية الأولية élémentaire

معتبرة وموصوفة بحد ذاتها "en soi"، بمعنى أنه خارج كل سياق دلالي لا يمكن أن يكون ثَمَّت غير ثنائية binaire، وهذا لا يرجع فقط إلى أسباب نظرية غير مُوَضَّحة non élucidées ، والتي يجب أن تُحال إلى المستوى الخاص بنظرية المعرفة épistémologique للغة، بل بسبب الإجماع الحالي للسانيين بأن الدلالة متمفصلة إلى مَعنمينْ en deux sèmes :

"S vs non S"[1]

ويواصل ڤريماس مناقشته للتمفصل الدلالي الأولي عند برونداك وجاكبسون، حيث يستبعد وجود ما أسماه برونداك troisième terme-objet (اللفظة الثالثة – الغرض) والمجسَّد عنده في neutre (محايد)، وكذا ما عبر عنه جاكبسون بـ – S : لأن عدم وجود non-existence معنم لا يُعَدُّ معنماً، ولا يمكن تدوينه إلا في مستوى الدلالة التي تفصح عن ذاتها حيث وجود سياقين دلاليَّين deux contextes sémique متطابقين ومتمايزين يمكن تأويلهما بوساطة الحضور في السياق الأول لمعنم S، وهو غياب لا يمكن تعيينه بصورة اتفاقية بوساطة S–[1]، و S–يشير إلى عدم وجود المعنم non existence du sème.

وحتى يوضوح ڤريماس لمِا أثاره، فإنه يزوّدنا بتمييز بين الألفاظ الدلالية les termes sémiques ومحتواها الدلالي leur contenu sémique على النحو[2] :

(محتواها الدلالي leur contenu sémique S termes sémique (مَعَانِمُ دلالية)

(حضور مَعْنم présence du sème S) S positif (إيجابي)

(عدم حضور présence du sème non S S négatif Non (سلبي)

(حضور لـ présence de catégorie de non S) S neutre (محايد)

(présence de la catégorie sémique S) S (complexe S + Non معقد)

(حضور الفئة الدلالية S)

---

1. نفسه، ص. 24.
2. نفسه، ص. 25.

بين الفئات الدلالية وتلفّظاتها

ويواصل توضيحه التمييز بين الفئات الدلالية catégories والتلفظات الدلالية ليس فقط على المستوى الإبستيمولوجي، بل على مستوى إجراءات الوصف قائلاً : "إن الوصف لتلفّظ دلالي articulation sémique قابل لأن يُقارن بالتحليل إلى توزيعات كان البحث عنها جارياً بغية تسجيل الألفاظ الدلالية في السياقات الدلالية المقارنة، بيد أنه في حالة التحليل التوزيعي، فإن هذا البحث للألفاظ الدلالية يفترض ما نبحث عنه، في حين أن عدم وجود المعنم (S-) لا يمكن أن يكون معروفا مقدَّماً إلا إذا طرحنا أولاً المعنم le sème S كأنه موجود، وبالمثل فإن التعرف على لفظة terme كمعقّدة يقتضى التعرف على الفئة الدلالية التي سبق تحليلها إلى معانم منفصلة en sèmes disjoints، وبعبارة أخرى، فإن اللفظة المركَّبة terme complexe لا تتميَّز بأيّ شيء عن معنم بسيط أياً كان، وهذا يحملنا على القول بأن الفئة الدلالية سابقة على تلفّظها، وأنه إذا كان الوصف ينطلق من التحليل لتلفظات دلالية، فإنه لن يبقى أمامنا إلا أن نؤكّد أو نُبْطل الوجود للفئة الدلالية المسلَّم بها قبلياً، وإلى هنا نقول : إن الوصف السيمانطيقي بناء construction من لغة واصفة métalangage.[1]

مصطلح sémique

وبعد هذه التحاليل لصيغ التلفّظ الدلالى المرتبطة بالوحدات الدلالية الصغرى مما أسماه les modes d'articulatiion sémique (كيفية التلفظ الدلالي)، ينتقل إلى تحليل العلاقة فيما أسماه forme et substance أي الشكل والمادة أو الماهية أو حتى الجوهر، وقبل أن نستمر معه في هذه النقطة إرتأينا أن نقف مع المتلقّي قليلا للإحالة على استنطاق مفهوم sémique لشعورنا بقلق شديد، ونحن نعبر عنه على أنه دلالي أو معنوي أو sémantique مرتبط بالوحدات الدلالية الصغرى، وكنا تعمدنا التعبير عن باسمها الأجنبي هروبا من اِلتباسها في اللسانيات العربية بمصطلحات أخرى مثل :

– Signifiance

– Significatif

– Signification

– .... إلخ

ولكنا وجدنا أنفسنا مورطين في تعابير لا تخلو من لُبْسٍ كلما وصفنان ب زولضغبالدلالي، ولو عوّضناه بالمعنوي لَدَخَلْنا اَللُّبْسُ نَفْسَهَ، لأن le sens (المعنى) يجب أن يظل le sens تقليصاً لفوضى المفاهيم والمصطلحات في اللسانيات العربية الآنية.

إن مصطلح "سيمِيك" sémique قد يسمى أيضاً componentielle (componentiel Analyse) أي تحليل دلالي، ويقصد به استخراج الوحدات الدلالية الصغيرة في كلمة أو لفظة، ويشار بهذا إلى مُكَوِّن أو عنْصر مكوِّن أو مؤلِّف élément composant أو حتى constituant.

ويحدَّدُ l'analyse sémique بأنه يسعى إلى إقامة أو وضع تكوين أو تركيب سيمانطيقي composition sémantique لوحدة معجمية مع أخذ الاعتبار للسمات السيمانطقية أو المعانم les sèmes، وهذه الأخيرة تحدَّدُ لسانياً بأنها الوحدات الدلالية الصغرى unités minimales de signification غير القابلة للتحقيق المستقل.

التحليل السيميكي (المَعْنَمِي)

إن التحليل السيِّمِيكي sémique (الدلالي) يستشفَ وحداته من وحدات التحليل الفونولوجي، فالسِّمة السيامنطيقية أو المعانم يراد بها عند البعض السمة الملازمة pertinent للدلالة. وكنا أشرنا من قبل إلى أن كل معنم يشكّل أصغر وحدة دنيا من الوحدات الدلالية التي تنضوي تحت ما يُدْعَى sémème (مفَاهم)، لأن هذا الأخير مجموعة من السمات الملائمة أو المطابقة، وسبق أن ضربنا المثل على هذا بالكرسي المؤلف من أربعة معانم S1 + S2 + S3 + S4 والأريكة المكونة من خمسة معانم S5 + S4 + S3 + S1 + S2.

وينبغي ألاّ ننبهر أمام هذه المصطلحات البرّاقة والغامضة في الوقت نفسه إلى درجة ألاّ نفقه ما يختص بالأشياء مما يختص بالإنسان، لأن الأشياء الموجودة في عالم الدلالات كثيرا ما تتشابه وتتقاطع مع دلالات إنسانية، ولكن يبقى في النهاية لكلٍّ عالمه الدلائلي، ولعل هذا ما يعبر عنه النص التالي : "إن التحليل السمّيكي (الدلالي) يجد موطنه في أبحاث التصنيف التكنولوجي، إذ نلاحظ أن المعانم les sémes الطليقة Dégagés لا تملك قيمة ما وراء اللغة métalinguistique ولا تحمل إلا معلومات تصنيفية حول الشيء الموصوف، وبالفعل فإن الذراع le bras في أريكة ذات ذراعين ليس لها ما تشترك فيه مع الذراع لدى الإنسان ذي الذراعين، ومن ثم، فإن المعانم [بذراع] [avec le bras] le séme الملازم تكنولوجيا للأريكة لا يتضمن الإحالة لنفس الحقيقة الموجودة في ذراع الإنسان."[1]

ولا يخفى علينا ما في هذا المنهج من تجزؤ وتفكيك للكلمة أو اللفظة إلى عناصرها الأولية المؤلِّفة لها، وهذا المنهج للدراسة السيمانطقية (الدلالية) للوحدات اللكسيكية (المعجمية) ليس إلا تفرعا للتحليل الفونولوجي الذي يسعى في تحليله اللغوي إلى وصف السمات وصفاً تمييزيا تحسينيا، ويرى هذا المنهج الذي يسعى إلى تحليل الكلمات على غرار التحليل الفونولوجي أنه بوسعنا اتباع طريقة باستعمال المزاوجة لتفكيك الألفاظ ومقابلتها بتعارضات ثنائية أو ثلاثية ternaires، وهذا وهكذا فإن مقارنة عالٍ haut وطويل long يدل على حضور سمات متضادة "عمودية" و "أفقية" وبالمثل فإن مقارنة منفوخة pouf ومعقد tabouret، كرسي، متكأ fauteuil، أريكة canapé تكشف بأن هذه الكلمات مؤلّفة من قبل نفس المعانم الستّة المأخوذة في توافقاتها المختلفة "للجلوس عليه"، "على رجل"،sur pied، "لشخص واحد"، "مع مسْنَد avec dossier"، "بذراعين"، "بمواد صلبة"، فكلمة الكرسي مثلا، وحسب فكرة بوتيي، تُحَدَّد أو تُعَيَّن بوساطة حضور المعانم الأربعة الأولى التي تتشارك فيها مع النُّمْرق أو الوسادة التي يُتَّكأ عليها (المنفوخة).[2]

1. Dictionnaire de linguistique, p. 435. JEAN DUBOIS.
2. Dictionnaire de didactique des langues, p.107. أنظر

البعد البنيوي للدلالة لدى جورج مونان

لم يفت جورج مونان GEORGES MOUNIN اللساني الفرنسي المعاصر أن يلتفت إلى هذا البعد البنيوي للدلالة أو المعنى في معظم آثاره اللسانية الجيدة التي لا تعرف تعقيداً ولا تطويلاً إلا ما تقتضيه متطلبات الإشكالية اللسانية المطروحة، ونحن هنا نركّز على ما ورد في كتابه التعليمي الشهير "مفاتيح اللسانيات Clefs pour linguistique".

بعد تساؤل جورج مونان عن ماهية الدلالة والمدلول signification et signifie، يتساءل : هل السيمانطيقيا قابلة للبنية ? La sémantique est-elle structurable مشيراً بعد تساؤله مباشرة إلى أن المسعى الجوهري للسيمانطيقا بعد دي سوسور انعكف على تأسيس علم للمداليل موازاة بالوصف العلمي للدوال التي كانت تشكّل أولاً، وبشكل غير محسوس الفونولوجيا والسانتكس البنيويّيْن معيداً بذاكرتنا إلى الأفكار اللسانية البلومفيلدية التي كانت ترى أن المعنى مستحيل فَقْهُهُ وإدراكهُ علمياً، وأما الأوروبيون الأكثر اعتدالاً، فأشاروا مع ذلك إلى أن حقل المعنى، مثلما قال أندري مارتيني : "حيث أثبتت التجربة أنه من الصعوبة بمكان تنظيم الوقائع"، وكانوا يقرّرون، وخلافاً للفونولوجيا والسانكس، أن المفردة أو اللفظة يظهر أنها أكثر من أن تكون سهلة لاختزالها إلى نماذج بنيوية.[1]

وينبه جورج مونان إلى أنّ هناك نوعين من البنيات : بنيات شكلية structues formelles، وبنيات تصورية structures conceptuelles، فالأولى تُلاَحَظ في بنيات سيميوطيقية على شكل مجموعات قابلة للتنظيم في مداليل مكشوفة Décelables بفضل وجود علامات marques شكلية حاضرة في الدوال المناظرة التي تنطق أو ترسم بوساطتها، كالسلسة التالية :

1. Enseign-er (علّم), Enseign-ons (نُعَلِّم), Enseignant, (معلّم) Enseignement (تعليم), ...

2. Boulange-rie (مخبزة), Charcute-rie (جزارة) , Armure-rie (مصنع أسلحة) ...

---

1. Clefs pour la linguistique, p. 136-137.

أنظر

3. Casse-noisette (كسارة بندق) casse-tête (عصا، دبّوس)، ...

التي تؤلف بنيات سيمانطيقية شكلية. إلا أن هذه البنيات ليست دائما سهلة المنال لتأليفها. مثال ذلك أن الظرف الحالي L'adverbe de manière له بنية سيمانطقية وشكلية. ويسوغنا انطباع بأن هذه البنية واضحة على أننا نضيف إلى النعت المؤنث ment فنقول belle+ment : (بالحسنى أو اللطف)، وvive+ment (بحيوية)، ... إلخ. بل نستطيع أن نتبيّن بسهولة أن هذه القاعدة يبدو أنها لا تنطبق ملاحظتها مطلقا على أي ظرف حالي. إذ لا يُسْمَح لنا بالقول écritement في écrit (كتابة) مع أنه يوجد impunément (عقاب). كذلك لا يجوز أن نعبر عن الظرف بـ lionnement في lion (أسد).

وأما البنيات التصورية التي تحتوي بدون أي شك على مجموعات قابلة للتنظيم في مداليل، فإنه لا يمكن كشفها بفضل وجود موازٍ لشارات شكلية في الدوالّ المناظرة. إنها حالات السلسلة :

1. Fourmi (نملة)، papillon (فراشة)، Cigale (زيز الحصاد)،
mouch (ذبابة)، Grillon (جُدْجُد)، ...

2. Bateau (باخرة)، Barque (قارب)، Navir (سفينة)، Paquebot
(سفينة نقل)، ...

3. Enseignement (تعلم)، éducation (تربية)،
Dressage (تهذيب، ترويض)، apprentissage (تمرّن)، ...

في سلسلات مثل هذه نلاحظ أن التحالفات les apparentements البنيوية التي بحوزتنا ذات طابع تصوري صرف وذاتي «objectal». اللهم إلا إذا كان هناك علم آخر يزوّدنا بمعايير موضوعية كما هو الحال في البيولوجيا وغيرها.

ويوضح هذا اللساني أن "التجزئة والتعددية لهذه الأبحاث لا تبرح حتى الآن مُقَنّعة masque بسبب تولية شطر وجهها صعوب اتجاهين كبيرين فقط، لا يُرى حتى وجه تكاملها. أو بسبب البحث عن كشف بنية داخلية لأصغر وحدة دالة أو مونيمة monème . أو بدافع البحث بغية العثور

على بنية ذات قدرة على تبرير تضامّ عدد من المونيمات في مجموعة سيمانطيقية دون الشعور بأن قاعدة النمط الثاني للبنيات لا يمكن أن تُموِّن إلا من قبل النمط الأول للبنيات.[1]"

ولعل ما يهمنا أكثر هنا، فضلاً عن النوعين من البنيات الشكلية والتصورية أعلاه، ما أطلق عليه جورج مونان "النظرية المنطقية للمدلول la théorie logique du signifié، وكأنه يريد أن يطرق بنا علم الدلالة المنطقي logique sématique، لكن بمنهج سيمانطيقي، واستنتاج لساني.

أجل، يهمنا هذا المبحث هنا حتى يتناسق في مقاربته مع ما ورد لدى قريماس وبوتيي، ومع ما سيرد لاحقا لدن دكرو DUCROT وتودورف TODOROV وغيرهم ممن اشير أو سيشار لهم عرضاً أو شيء من التفصيل، كإشارة ج. مونان فيما سيأتي.

النظرية المنطقية للمعنى

يعترف ج. مونان بأن النظرية المنطقية للمعنى أو الدلالة الدالة الصغرى يجب أن تخضع أو تكون قابلة للتحليل Décomposable أو الفك إلى وحدات أصغر منها في صور المحتوى تماماً كقبولها الانحلال إلى وحدات صوتية تمايزية (فونيمات) في صور العبارة Figures d'exprexion، وذهب هلمسليف في هذا الاتجاه ليبرهن على صحة نظريته غير القابلة للتأييد فيما أطلق عليه التماثل أو التشاكل المورفيمي l'isomorphisme لكل البنيات اللسانية.

ورغم صعوبة دعم نظرية هلمسليف الماورائية، فإنه مع ذلك لفت أنظار اللسانيين بأن الوحدة شكلياً لا تقبل التجزئة أو التحليل indécomposable، فوحدة auto" سيارة" مثلاً من الناحية السيمانطيقية قابلة للانحلال إلى وحدات من الدلالة أصغر، والتي يطلق عليها عموما في اللسانيات البنيوية الحديثة معالم traits (أو سمات) سيمانطقية ملائمة traits sémantiques pertinents (مَعْنَم) sème، مَفْهَم sémème، والتي يقال لها دون خلط مصطلحي véhicule جرّ" + traction par moteur" سحب بمحرك" + quatre roues" أربع عجلات

---

1. المرجع السابق، ص. 140 ــ 139.

"pour le transport des personnes" + "لنقل الأشخاص"، ... إلخ، هذه المعانم قابلة للاستبدال منفصلة، فهنا إبدال مَعْنَم "traction par moteur" بِمَعْنَم "hippomobiles Traction" مجرو بالخيل" يعطي سلسلة "chariot" عربة" ... إلخ، والدال سمة" à quatre roues بسمة مَعْنَم" à deux roues بعجلتين" يعطي سلسلة tombereau عجلة بدولابين" ...إلخ، واستبدال مَعْنَم "transport des personnes" بسمة transport des marchandises نقل بضائع" يعطي سلسلة "camion" شاحنة، poids lourd آلية كبيرة" ... إلخ.

الوصف السيمانطيقي عند تودوروف و دكرو

وممن عالج الوحدات البنيوية السيمانطيقية تودورف TODOROV ودكرو DUCROT بشيء من المقارنة والتفصيل، ومما جاء لديهما أن الاعتقاد بالوصف السيمانطيقي اللساني للُغَة معناه الاعتقاد المعقول بأن نَعْزُو إلى كل ملفوظ معنى، دون أن ننكر طبعاً أن هذا المعنى قادر على التكيف في دقته أو تغيير اتجاهه بوساطة المقام الذي يستعمل فيه، وفضلاً عن ذلك الاعتقاد بحساب المعنى الكلّي لملفوظ، ومعرفة المعنى لوحدات دلالية كلمات كانت أم مور فيمات تظهر على سطح المعنى، دون أن ننسى العلاقات السانتكسية التي تضم هذا كله "لكن إذا كان هذا التركيب السيمانطقي combinatoire sémantique يأخذ حتما التنظيم السانتكسي كنقطة انطلاق له، فإن جملة من اللسانيين يرون أن التنظيم السانتكسي ليس أكثر من نقطة انطلاق ليزوّد نفسه بقرائن لا غير، وهذا لا ينطوي فقط على أن العلاقات السيمانطيقية تتحدّد بخلاف العلاقات السانتكسية التي لها مضمون بذاته، بل لا يمكن لها بخاصة أن تكون موضعَ مطابقة واحدة فواحدة" زفـو ث زفـو مع العلاقات السانتكسية."[1]

ويرى المصدر ذاته أن القرينة الممكنة لأصالة التركيب السيمانطيقي يتعلق بغياب التوافق correspondance بين الوحدات الدنيا للسانتكس، والوحدات السيمانطيقية، ويعدّ هلمسليف أول لساني كان له إلحاح على هذا الجانب، إذا كان يلحّ على أنه ليست الوحدات الدالة

1. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. 338.

الصغرى (كلمات أو مورفيمات)، ذات العناصر الأساس للسانتكس، غالبا ما تملك وحدها محتوى سيمانطيقياً مركبا أو معقّدا، بل تحليلها إلى وحدات أكثر بساطة يمكن أن يكون مؤسساً على اعتبارات لسانية بحصر المعنى، ويكفيك أن تتأكد من هذا إذا طبّقت منهج الاستبدال la commutation في ميدان لمعنى الذي يطبّقه الفونولوجيون les phonologues في ميدان الصوت بمعنى أنه إذا كانت الفونولجيا ترى أن الوحدتين /S/ و /U/ في المورفيم الفرنسي هما اا فذلك أن كلاّ منهما ممكن تعويضها بوحدة أخرى، وهذان التعويضان ينتج عنهما معنى مختلف، لدينا مثلاً BU[1] وSU[2] وغيرهما، وإذاً فالاستبدال أو التعويض نفسه ينسحب على محتوى المورفيمات، فالفعل souhaiter (تمنَّى) يحوي، في جملة ما يحوي، الوحدتين السيمانطيقيتين Absences" غياب أو قلة الذوق" borE" جيد أو سليم الفطرة" هذا إذا بدّلنا "bon" بـ mauvais"سيّئ"، والدلالة المحصّل عليها ينبغي أن يُعبّر عنها بفعل آخر، أحياناً، أحياناً مثلاً يعبّر عنها بالفعل redouter (خاف)، وإذا عوّضنا "absence" بـ présence حضور"، فإن الدلالة الحاصلة تشبه الدلالة في الفعل apprécier قدَّرَ أو ثمَّن.

إن الوحدات السيمانطيقية أو العناصر التي تكون مدلول الفعل (تمنى) أو سواه من الأفعال لا وجود لدوالّ تقابلها، لأن هذه الأخيرة مستقلة، وهمسليف الذي كان يسمّي صورةَ زموشضس كلَّ عنصر لساني لا يكون دالاً ولا مدلولاً، يسمى كذلك الوحدات السيمانطيقية الدنيا minimales صورة المحتوى Figures du contenue، في حين أن اللسانيين الفرنسيين أمثال برنارد بوتيي وقريماس كثيراً ما يتحدثون عن مَعَانم sème ، في حين أن اللفظة الانجليزية الأكثر شيوعاً هي sémantic feature التي تقابل في الفرنسية trait sémantique (مَعْنَم أو سمة سيمانطيقية) يسمى على الأقل في اللسانيات البنيوية لدى لسانيين فرنسيين، كما هو الحال عند قريماسGreimas، التحليل الدلالي analyse sémique أو analyse componentielle الذي يمكن أن يفهم كسابقه الإعراب بتفكيك المعاني إلى علامات إعرابية، ولذا فيمكن تسميته مبدئياً "التحليل

1. j'ai bu أي شَرِبْتُ.
2. il a su أي علمَ.

المَعْنَمِيُّ، ومنهجية هذا الأخير يقوم على مقارنة الكلمات بعضها ببعض، كالمقارنة السابقة بين تمنّى وخاف وقدّر.

ويرى ذات المصدر أنه في حالة ما إذا كان التحليل الدلالي sémique يقوم فقط على عناصر لِكْسِيمات (جمع لِكْسِيم) lexème، حتى وإن كنا نحبّذ لها مصطلح "مَجْذَرَ" أو "مأصل" بالعربية، والتي تتمثل كـ"كتلة من معَانِم sèmes، فإنه لا يكفي في مثل هذه الحالة ليضمن الفرادة l'originalité للتوافقية السيمانطيقية combinatoir sémantique أنه يبقى من الممكن أن العلاقات السيمانطيقية تعالج إجمالاً كل كُتْلَة من هذه الكتَل، عندما يتهيأ أن يكون لها نقاط البداية والوصول نفسُها مثل النقاط ذاتها للعلاقات السانتكسية التي تنطبق مباشرة على المَجَاذِر lexèmes.

ولكي يُشْرِك التحليل الدلاليُّ sémique الطابع المتعذّرَ تبسيطهُ le caractère irréductible للتوافق السيمانطيقي[1] ينبغي ألا يقوم على المحتوى لوحدات معجمية وحسب، بل يرتكز على مقاطع الملفوظ ارتكازا أكثر سعَةً كما هو الحال عند قريماس، لا بل على آثار المعنى effets de sens (المسماة مفَاهِم (جمع مفْهَم) sémèmes)، أي على الدلالات المربوطة بأحد السياقات أو أحد مقامات الخطاب، وإذاً فإن المعانم les sèmes ليست أكثر وثوقا بالكلمات أو بالمورفيمات[2]، وأن العلاقات التي تجمع بينهما لا يمكن لها أن تكون موازية للعلاقات السانتكسية، بيد أن الحدود في هذه الحالة تتلاشى se stompent بين السيمانطيقا للُغَةِ والتحليل لخطابات مصنوعة في هذه اللغة.[3]"

ويشار هنا إلى أن أنصاراً للنحو التوليدي يزعمون أنهم يستطيعون أن يثبتوا لنا بالأدلة السانتكسية الصِّرف عَزْو السمات السيمانطيقية إلى مورفيمات اللغة، ولنفرض مع هؤلاء أن السانتكس يقدم بيانا واضحا عن

---

1. يقال التوافقي مثلما يقال التركيبي والتنسيقي،ويقال غير هذا، وكل هذا يقابل combinatoire التي تقوم على أساس فرضية أن القواعد النحوية إوالية منتهية، والمنهج التوافقي للقواعد النحوية البنيوية يكمن في : (1) أن يأخذ بعين الاعتبار السياقات وحدها للوحدات (تحليل المدونة corpus) (2) أن يبحث في القيود التي تُمارس أو تؤثر في سلسلة الكلام، ... إلخ.

2. يستعمل المصدر هنا المروفيم مقابل المونيم (أصغر وحدة دالة).

3. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. 340.

تقييدات انتقائية للمعنى من جراء أن العناصر كلها للفئة النحوية س لا تتركب مع كل العناصر لفئة أخرى، ولتكن ص، ولكن إذا ما أخذنا مثال شومسكي la sincérité admirte Jean سلامة الطويةُ تُعْجب بِجانَ. فإنه لا يسمح في لغة لا تناسبها هذه السلسلة أن يقال هذا. في حين أنه بمقدورنا أن نركِّب جملة مؤلفة من أداة تعريف، وفعل متعدٍ، من اسم علم، ولوصف هذه الواقعة اللغوية يتطلّب منا أن نعزو إلى العديد من المورفيمات أو الوحدات الدنيا الدالة سمات سيمانتطيقية لازمة أي كأنها محمول prédicat لا يبارح الموضوع. كما في الكلمة الممثّل بها sincérité تُعْدّ ذات سمة nonanimé غير حيٍّ معروضةً أو مرسومةً (-animé). في حين يمكن أن يُعْزَى إلى المورفيمات الأخرى سمات سيمانطيقيي سياقية contextuels، وبعبارة أخرى توضيح السمات اللازمة inhérents التي يجب أن تَحتَازَها المورفيمات التي تتركب، والمثال على هذا أن الفعل admirer (أعْجَب) ذو سمة تشترط فاعلاً أو مسنداً إليه حياً معروضا رمزيا على نحو "+ حي ———". والخلاصة أن القاعدة العامة للنحو تمنع تركيب مورفيمات سماتها اللازمة والسياقية متنافرة incompatibles.[1]

العلاقة السيمانيطقية النحوية

إن الحديث عن العلاقة السيمانطيقية حديث لساني شيق، ولا يمكنك أن تسبرغور علاقة سيمانطيقية أو مورفولوجية أو سانتكسية،... إذا لم تحدِّد ماهية العلاقة la relation أو le rapport لسانياً، وبشكل عام، وبعودتنا إلى أمّات المصطلحات اللسانية الحديثة نقف على أن العلاقة اللسانية بشكل عام تعني وجود صلة بين كلمتين على الأقل، والعلاقة يمكن أن تكون أيضا بين وحدات صوتية تمايزية غير دالّة (فونيمات) أو بين أصغر الوحدات الدالة (مورفيمات أو مونيمات) أو جمل.

إن العلاقات ممكن أن تكون أيضا بين عناصر متتابعة في تتابع أصواتنا الكلامية، ونحن نتكلم والمسماة عادة السلسلة الكلامية، ومن المسلَّم به أنك في جملة مثل :

– السوسُ هو الدوُد الذي يأكل الحبَّ والخشب والميْتَ،...

– تتكلم سانتغمياً (تركيبيا أو نظمياً، ...) على محور أفقي، لكن بإمكانك القول :

– السوُسُ الدود الذي يأكل الحبَ،...

دون ذكر للضمير المنفصل (هو) إذا كنت في مقام شرح معنى "السوس" لكن إذا كنت في مقام وصف وظيفة السوس أو الدود إزاء عالمه، فيمكنك القول مباشرة :

– السوس أو الدود يأكل...

دون ضرورة لذكر اسم الموصول (الذي) لأن ذكرك إياه يجعل جملتك غير تامة في معناها حتى لو عطفت على المفعول الأول المفاعيل كلها، ولكن اللغة بحر لا ساحل له، أو فضاء لا حيزَ له، إلاّ أحياز الإرسال، إذ كلّما آلت اللغة إلى حدود الإمكان، إلا ولاحَ المستحيل في صورة بعيدة تعبرّ مجازياً عن استعمال لا يخطر مسبقاً ببال أي متلقّ :

– السوس الدود الذي يأكل الحُب (بضم الحاء)، ولك أن تقبل أو ترفض هذه الصورة التي خَرقت كل ساحل دلالي ممكن.

– وما نريد أن نلاحظ عليه أن السلسلة الكلامية لا يوجد لها قاعدة منطقية مطلقة خارج الوحدة الواحدة سواء كانت أصغر وحدة دالة مثل "دَرَجَ" أم كلمة مثل : "سنَسْتَدْرِجهُمْ"، حتى وإن كنا نعلم أن هذا غالبا ما يلزم به المتكلم بالنسبة للجمل النواتية التي لا تقبل تقديماً ولا تأخيراً :

– صافح موسى عيسى / صافح عيسى موسى

خلافا لجملة مثل :

– شاهدت عصفوراً غريبا يغرّد فوق شجرة.

والتي يمكن اختزالها إلى جمل أصغر :

– شاهدت عصفوراً يغرد فوق شجرة،

– شاهدت عصفوراً فوق شجرة،

– شاهدت عصفوراً،

– شـُوهدَ عصفور.

غير أن الأمثلة السابقة وما جرى مجراها لا تطبق على العلاقات السيمانطيقية الجاهزة، كما هو الحال بالنسبة للأمثال، إذ لا يمكنني عرفيا أن أختزل مثلا مثل :

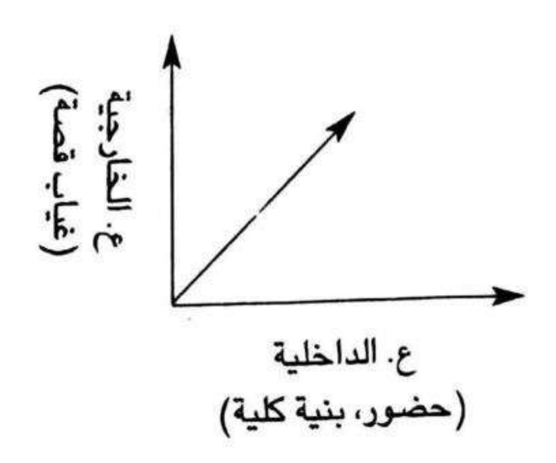
– عصفور في اليد خير من عصفورين فوق الشجرة،

على الرغم من أنه قابل لذلك من الناحية التركيبية.

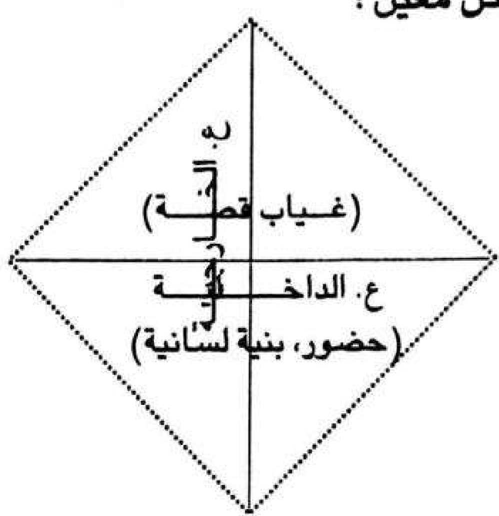
والتراكيب الأمثالية كيفما كانت لغتها فصيحة أم عامية، فإن العلاقة فيها علاقة بنيوية دلالية كلية لا تقبل التجزؤ، إلا التجزؤات الدلالية الدنيا، لأن نصوصها جمل نواتية ليس أمامك ما تحذف من عنصر أو عناصر فيها، بل لأن الحدف قد تمّ تلقائيا خلال عملية أول تلفظ لها، ومحذوفها علاقة غائبة يشير دائما إلى قصة، بمعنى أن كل مثل يتركب دلالياً من علاقة خارجية (القصة أو الحدث ...) وعلاقة داخلية (التلفظ الذي نُسِجَ به المثل)، وإذا كانت العلاقة الداخلية قابلة للتأويل بفضل عناصرها المؤلفة لها، فإن العلاقة الدلالية الخارجية ليس من الهيّن رصدها دائما، على الرغم من أنه ليس بمقدورنا أن ندرك دلالة أمثال استناداً إلى علاقاتها الداخلية وحسب، إذ ما من أحد يفهم مثلهم :

– "علُقِّتْ معَالقِهَا، وَصَرَّ الجُنْدُبُ"

إذا لم ترتبط علاقته الغائبة بعلاقته الحاضرة، وهنا يجب أن نفرّق بين العلاقة الداخلية، وهي الحاضرة، بانتمائها الأفقي، والعلاقة الخارجية، وهي الغائبة، بانتمائها العمودي، ويمكن تمثيلها :



أو بوساطة شكل معيّن :

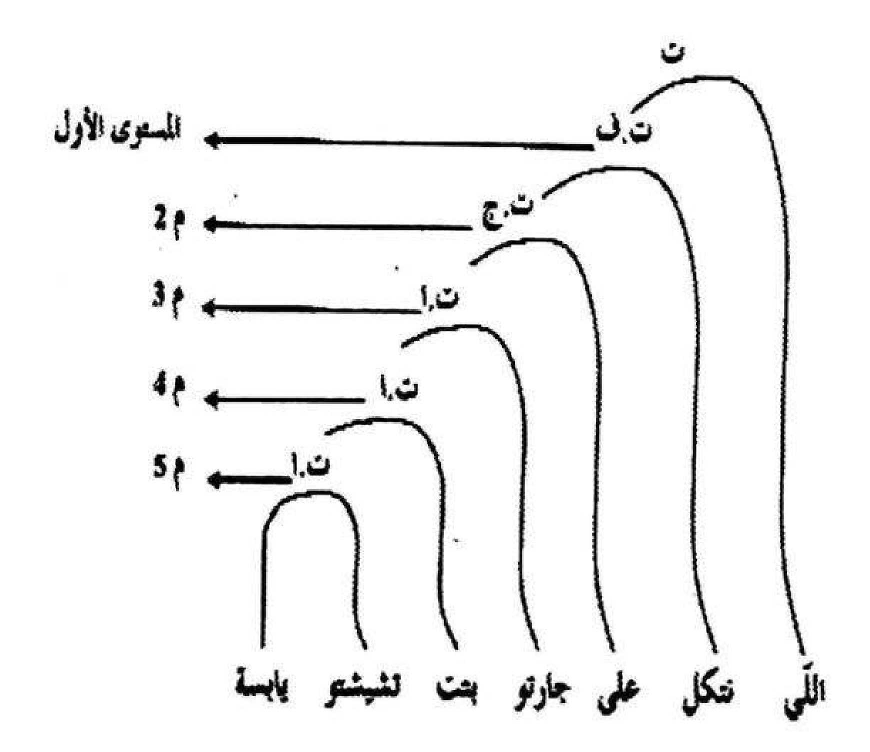


والشيء نفسه ينطبق على المثل الشعبي، إذ ما عساك أن تحذف من مثل مجهول أو شائع مثل :

– اللّي نتَكْلْ علَى جارْتُو بتَتْ تشيشتُو يَبْسَه

(مَنِ اتكل على جارته باتتْ تَشيشتُهُ (سميد الشعير) يابسةً)؟

ومن ثمّ، فإن العلاقة الدلالية في أي مثل مرتبطة ارتباطا إجباريا بقواعد توليدية مغلقة، فعناصرها لا تقبل التكرار non récursif :



فالمثل هذا مركب من خمسة مستويات لا سادسَ له، وقد يقول قائل متمرس في هموم القراءة اللسانية الجديدة إن النص أي نص لا يكون إلا مفتوحاً، وأنت تزعم هنا أن المثل نص مغلق، والذي ندركه أن ما كان من غير المثل من نصوص تحتمل قراءات لا نهائية، أما المثل بوصفه نصاً أيضاً، فلا يقبل إلا قراءة واحدة، وإذا ما تصورنا له قراءة أكثر، فذلك لا يرجع إلى تعددية قراءاته الدلالية، بل إلى جهلنا بعلاقته الخارجية التي لم تعوّضنا علاقته الداخلية، ليس إلا، غير أنه في تركيب خارج المثل كقول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بِمَيْت   إنـمـا المَـيْتُ مَيّتُ الأحيـاء

يمكن حذف "فاستراح" إذا كنا لا نراعي وزن البحر الخفيف، لأن هذه الكلمة لا تضيف أية معلومة ما عدا الحشو، بل ليست لها أية علاقة دلالية مع عناصر المجموعة، وحتى "ميّت" في الشطر الثاني لا تزود الرسالة المبلّغة بشيء إضافي،ودلالتها باهتة لا قيمة لها، ما دمنا نفهم :

إنما الميت الحي أو إنما الأموات الأحياء

على أي حال، العلاقات، كما أشرنا، يمكن أن تكون بين عناصر متتابعة في سلسلة كلامية مغلقة تلفظاً ودلالياً، كما هو الحال في الأمثال، ومغلقة تلفظاً ومفتوحة دلالياً خارج الأمثال، وتكون وفق محور سانتغني، ويمكن أن تكون العلاقات متبادلة بعضها ببعض في الموقع ذاته لكن على محو آخر هو المحور البراديغمي، لأن العلامة اللسانية في حدّ ذاتها، كما حدّدها دي سوسور، ليست إلا نتاج علاقة بين دالّ ومدلول.

إن القيمة اللسانية مؤلفة من علاقة مضاعفة "علاقة خاصة بشيء غير متشابه Dissemblable (فكرة)وعلاقة خاصة بشيء مشابه قابل لأن يُقارن بكلمة (كلمة أخرى)، وبالطريقة نفسها المتعامل بها في الوقائع المعجمية، فإن وقائع النحو (مفرد/ جمع مثلا)، وقائع الفونولوجيا (صائت / صامت، أو صائتان / صامتان مثلا) ليست في واقع الأمر إلا علاقات، وليس لها خاصيات caractère إيجابية، والتمييز الديسوسوري

بين علاقات تركيبية وعلاقات ترابطية associatifs احتفظت بها اللسانيات البنيوية تحت اسمي العلاقات التراكيبية والعلاقات الإبدالية.[1]

وغني عن البيان أن العلاقات التركيبية يعزوها ديسوسور إلى النشاط الكلامي "إن الجملة هي النمط الأفضل للتركيب غير أنها تنتمي إلى الكلام لا إلى اللغة"[2] حيث الكلمات تتعهد فيما بينها آلياً لإلزام العلاقات المؤسَّسة على الطابع الخطي أن تتَتَابع في محورها الزمني. أما العلاقات الترابطية أو الإبدالية فيسندها إلى اللغة ذاتها.

وثمَّت لسانيون لا يتردَّدون في القول بأن المعانم المختلفة les différents sèmes المؤلِّفة للمحتوى السيمانطيقي لوحدة لغوية تتشارك في تكوين مجموعة بالمعنى الرياضي، ويُقْصد بهذا أن المعانم المختلفة تجتزئ بتكوين مجرد تشكيلة أو مجموعة انتقائية دون تنظيم داخلي، ودون علاقات خصوصية بين عناصرها، ويُسْتَخْلَص من ذلك أنه إذا كان لوحدتين المَعْنَمَان نفسهما، فإنهما ليسا بأكثر من مترادفيْن، مما يطرح مشكلاً في تمييز garage (مأرب) وcoffre (صندوق) من voiture (السيارة)، فالكلمتان تمتلكان في الوقت معاً المعْنَمَيْن ranger (رتّب) وautomobile (سيارة)، وسنجد أنفسنا في مثل هذه الحالة مجبرين، إذا أردنا أن نتخلص من هذه الورطة، لاستعمال معانم des sèmes مثل "les automobiles (للسيارات) وdans les automobiles" (لأجل السيارات).

ومما يعضد الفكرة السابقة إلى حد ما أنه إذا كانت هناك علامة لسانية لا تسدُّ مَسَدَّ نفسها بتشابهها مع المدلول المشار إليه، فإن قيمتها لا يمكن أن تكون إلا بوساطة علاقاتها مع العلامات الأخرى، من ذلك أن كلمة تفاحة لا تبلّغ الملامح الخاصة للتفاحة التي نطلبها، لأنها لا تمثل الملامح المشتركة لكل التفاح، بل لا تبلّغ إلا ما يجعل التفاحة تتعارض به مع الوقائع المختلفة، أي كل ما هو غير فاكهة مثلها من بين الفواكه لا يكون تفاحاً وبمعنى آخر، فإن معنى التفاحة سيكون من البديهي مختلفاً عن

---

1. Dictionnaire de linguistique, P. 405 JEAN DUBOIS.

2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 151– 150.

فواكه أخرى مثل الإجاص والسفرجل ونحوهما، بل ما كان هذا المعنى يحصل للتفاحة لولا وجود فواكه أخرى، وإذا ما حصل، فإن حصولها يكون خارج معاني الفواكه.[1]

أما WEINREICHE (وينريش) فيرى من جهته أن المحتوى لوحدة دلالية، وهي المعانم les sèmes يمكن أن تكون متداعية بوجهين مختلفين: مجموعة إضافية متداعية المعنى، وقد تُسمّى cluster وهو تراكم أو عنقود صوتي (صوامت؟ غالبا– متتالية في مقطع واحد) أو Agglomérat المشير إلى كتلة صوتية يتراكم فيها صائتان أو صامتان، وهذا إذا لم يكن بين المعانم أي علاقة خاصة، فكلمة garçon (ولد) تراكم صوتي متتابع cluster مركب من سمات "Enfant" (طفل) وmale (ذكر)، ويقدم كـ "enfant" و"male" ومعيار كون الولد طفلاً وذكراً في الوقت نفسه يستدعي أن نميز الصورة configuration التي تنشئ علاقته السيمانطيقية بين الوحدات الدلالية كلمات كانت أو مورفيمات حسب نمط التجميع assemblage الناشئ بين الوحدات المؤلَّفة أو المكوِّنة.

ويحاول WEINREICHE أن يوضح طرحه المعنْميَ بطريقة بسيطة بإثارة وجود رابط linking أو liaison والمسمى أيضا enchainement (ترابط وإطراد) من عدمه، وبالنسبة إليه يكون هناك رابط أو علاقة عندما يكونَ تداعي أو ترابط وحدات تراكماً صوتياً متتابعاً[2] cluster، وهذه الحالة غالباً ما تنطبق على تداعي أو ترابط adjectif (نعت) + substantif (اسم) garçon gentil (ولد ظريف)= mâle, enfant (ذكر)، "gentil" (ظريف)، قزم ظريف =("رجل" ـــ "صغير"، "ظريف"). والحالة نفسها تنسحب على عدة أسماء مركبة مثل hien-loup، (عسْبُور)، حتى وإن كان الأمر يستوجب التصرف بمناورات أو دهاءات معقدة من أجل إبراز أن تعبيراً كرابط comme un linring مثل conducteur rapide (سائق سريع)، طالما أنه لا يوجد منذ الوهلة الأولى خلْق أو تكوين لعنقود صوتي cluster جديد لأن السائق السريع ليس أي شخص ليكون:

1. de la théorie linguistique à l'enseignement de la langue, p. 17 – 18 JEANNE MARTINET.

2. وقد يسمّى أيضا نسقًا أو مجموعة من العناصر

1. سائقاً، 2. سريعاً.

لكنه سريع بصفته سائقاً.

هذا بالنسبة للوحدات الصوتية المتتابعة والتي غالبا ما تكون من صوامت والمسماقم cluste، والمربوطة برابط يجمع سياق خطاب أو تسلسل دلالة أو فكرة (القزم رجل صغير ظريف)، وأما بالنسبة لعلاقة الرابط "الفارغ أو العديم non-linking"، فإنه يكون عديماً إذا لم تعمل العلاقة على خلق عنقود صوتي جديد nouveau cluster، إنها حالة العلاقات المتعدية transitives، كحالات الأفعال التي تجمع فعلاً ومفاعيله (كما في العربية حيث توجد أفعال تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل)، ومثالاً على ذلك إذا كان الفعل acheter (اشترى) يقتضي تقديمه بوساطة تجميع (أ، ب) والسيارة بـ (ج، د)، فإن (voiture (une acheter (اشترى سيارة) يجب أن تكون موضّحة بـ (أ، ب) ←(ج، د) وبخصوص العربية يمكن أن يكون التجميع:

(أ، ب) ←(ج، د) حيث التعدية إلى مفعول واحد،

(أ، ب) ←(ج، د، هـ) حيث التعدية إلى مفعولين،

(أ، ب) ←(ج، د، هـ، و) حيث التعدية إلى ثلاثة مفاعيل.

مع العلم أن العديد من الكلمات المركبة مبنية سيمانطيقياً على هذا النموذج:

- Porte-voix مكبّر الصوت،
- Saute-mines مفجّر الألغام،
- Hache-légumes قطّاعة البقول،
- Progége-cahier وقاء دفتر

لكن هذه الطريقة لتتبع العلاقات السيمانطيقية الكامنة في أصغر وحدة معنوية sème (معنم) والتي بدا لبعض المحدثين أن يطلق عليها "عضو الوحدة الدلالية" بينما حلا لبعضهم الآخر أن يسمّيها "وحدة معنوية أو معنى مفرداً"، أخذت شهرة وانتشاراً حتى غدا يقال لها مدرسة السيمانطيقا التوليدية تجاوزت نظرية weinreich، ومنذ زهاء عقود وهي تحاول أن تتخلّ

حتى عن فكرة العنقود الصوتي luster، نفسه الذي أضاف إلى الحقل الدلالي أفكاراً لا تخلو في الجانب العملي من ما ورائيات métalinguistique وضبابيات بعيدة عن الشفافية التي تدّعيها اللسانيات المعاصرة.

إن المدرسة السيمانطيقية التوليدية تخلت عن نظرية weinreich على الرغم من تمييزها بين الربط الدلالي من عدمه، وجعلت اليوم، ومنذ مدة، تعرض المحتوى لكل وحدة دلالية كصورة (أو كهيئة أو نمط ...) comme une configuration ، "وهكذا، فإن معظم كلمات أو مورفيمات اللغة تعتبر كمجرد اختصار إلى بنية سطحية لبنية واقعية هي أكثر تعقيداً ونظيرة analogue للبنية السانتكسية للجمل التامة، وهكذا فإن الفعل "casser" (كسّر) سيكون الأثر السطحي لتنظيم عميق نظير لعبارة expression مثل :

" être cause, par un choc qu'in objet devienne en morceaux "

(لم يكن إلا سبباً، من جراء اصطدام، لشيء يصير قطعا)، ولتبرير هذه الصياغة المعادة paraphrase، لا يكون بوسعنا إلا أن نجد كذلك اعتباطية مثل كلمة رعناء maladroite، وأن نحتجّ بأنها الذريعة الوحيدة التي تُمكّن من فهم الالتباس لجملة il a presque cassé la vase (تقريبا ما كسّر المزهرية أو اخلولق أن يكسّر المزهرية)، سوى أن الالتباس ينزع إلى أن المغيِّر (le modificateur أو المبدلّ أو المعدلّ) "presque" (تقريبا) المطبَّق سطحياً على الكلمة الوحيدة "casser" (كسّر) يمكن أن يكون عُمقياً en profondeur مطبقّاً في مواضيع مختلفة من التنظيم السيمانطيقي المعقّد المشروح لهذه الكلمة."[1]

ويردف المصدر ذاته أن المَعْنَمَيْنْ les sèmes - les deux sèmes "humain" (إنساني) و"jeune" (صغير السن) الحاضرين في كلمة "enfant" (طفل) يبدو أنهما في علاقة سيمانطيقية نظيرة analogue لتلك الموجودة في الاسم substantif والنعت adjectif في جملة، وفعلاً إذا ما طبّقنا العبارة التحديدية أو التقييدية Ne.. que على مجموعة اسمية + نعت، فإن التقييد هذا لا يعني إلا النعت "il n'a que des cigarettes blondes" (لا يوجد لديه غير

---

1. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. 343.

السجائر البيضاء) = il n'a, en tant que cigarettes, que des blandes (لا يوجد، باعتبار أنها سجائر، إلا بيضاء) والحالة نفسها "لا يوجد هنا إلا أطفال" = (لا يوجد هنا، بصفتهم ناساً، إلا أطفال)، والعكس لا ينسحب على : "il y a ici, de jeune, que les humains" (لا يوجد هنا صغار إلا الناس)، لأن الصغار قد يعبرٌ بها عن الإنسان وغير الإنسان.



المراجع العربية

- الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ترجمة أساتذة مغاربة، إفريقيا الشرق 1987.
- الأصوات والإشارات .أ. كندراتوف، ترجمة شوقي جلال الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972.
- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، دار العروبة القاهرة.
- التحليل اللساني البنيوي للخطاب، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب (وهران) 2000.
- تقريب النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط 2002.
- جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، دار الحديث (القاهرة) ط : 2005.
- ديوان النابغة الذبياني، دار الفكر بيروت 1968.
- ديوان امرئ القيس، دار المعارف بمصر 1964.
- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، مؤسسة بدران للطباعة بيروت 1963.
- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط : 3/ 1984.
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، دار المعارف، مصر 1973.
- علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية.
- الكفاية في النحو، محمد بن عبد الله بن محمود، تحقيق جاد الله الجعبري، دار ابن ابن حزم، ط : 1/ 2005.
- محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسور، ترجمة : يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، ط 1/ 1984 بيروت.

- مدخل إلى اللسانيات، رونالد إيلوار، ترجمة د. بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، ط : 1980.
- المصباح المنير، في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف : الفيومي، المكتبة العلمية بيروت.
- المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1989.
- معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، مكتبة لبنان 1983.

المراجع الأجنبية

- Clefs pour linguistique, G. MOUNIN, Editions seghers, Paris 1971.
- Comprendre la linguistique, sous la direction de BERNARD POTTIER, Edition Marabout 1975.
- De la théorie linguistique à l'enseignement de la langue, JEANNE MARTINET.
- Dictionnaire de didactique des langues, R. GALISSON /D.D Coste. Hachette 1976.
- Dictionnaire de didactique des langues, R.GALISSON /D.D. Coste. HACHETTE 1976.
- Dictionnaire de la linguistique, sous la direction de GEORGES MOUNIN, presses universitaires de France 1974 Paris.
- Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, Editions du Seuil, Paris, 1972.
- Elément de linguistique générale, ANDRE MARTINET, ARMAND COLIN.
- Essais de linguistique générale, ROMAN JAKOBSON, les éditions de minuit, Paris 1963.
- Essais sur la forme et le sens, NOAM CHOMSRY, Editions du seuil, Paris, 1980.
- Initiation à la linguistique, CRISTIAN BAYLON/ PAUL FABRE, édition FERNARD NATHAN 1975.
- Initiation à la problématique structurale Tome 2 Hachette 1978.
- La pragmatique, FRANÇOIS LATRAVERSE PIERRE MARDAGA, Editeur 1987.
- La sémantique fonctionnelle, CLAUDE GERMAIN, pernes universitaires de France Paris 1981.
- Les voies du langage. BORDAS, Paris 1982.
- Pour comprendre la linguistique, Marina Yaguello, Editions du seuil 1981.
- Problèmes de linguistique générale, EMILE BENVENISTE, GALLIMARD 1966.
- Sémantique structurale A.J GREIMAS, Larousse, Paris 1966.



مسرد البحث

صنف : 4/322
– الإيداع القانوني : 2010/3283
– ردمك : 978–9961–63–449–1

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com



www.editionshouma.com
e-mail info@editionshouma.co



ISBN: 978-9961-65-449-1